الباب الثامن

مصر

الفصل الأول

مهـــة النيل

١ — فى الوجه البحرى

الإسكندرية — النيل — الأهرام — أبو الهول

هذا مرفأ أمين أوفى على الغاية فى الأمان . ففى خارج حاجز المياه ترى الأمواج الصاخبة يعلو بعضها فوق بعض ، أما فى داخله فالبحر مرآة من اللجين . هناك ، على جزيرة فاروس الصغيرة ، فى عهد من عهود مصر الموغلة فى القدم ، شاد سُسُتْراتس من الرخام الأبيض منارته العظيمة ورفعها خمسمائة قدم لتكون هادية لجميع الملاحين الضاربين فى مياه البحر المتوسط ، ولتكون إحدى عجائب العالم السبع .

ولقد عفت آثار هذه المنارة بفعل الأيام والمياه الغاضبة ، ولكن منارة جديدة قد حلت الآن محلها تهدى السفن التجارية بين الصخور إلى أرصفة ميناء الإسكندرية ، حيث أنشأ الإسكندر — ذلك الغلام السياسى العجيب — مدينته العظيمة التى اختلطت فيها الأجناس ، والتى ورثت فيما بعد ثقافة مصر وفلسطين واليونان ، وفى مرفأ الإسكندرية استقبل قيصر وهو غاضب مكتئب رأس بمبى مفصولا من جسده .

وإذا أطل المسافر من نافذة القطار وهو يخترق المدينة لمحت عيناه فى بعض

أجزائها أزقة وطرقات غير مرصوفة ، وأمواجاً من الحرارة ترقص فى الهواء ، وعمالا عرايا إلى أوساطهم يكدحون فى مختلف الأعمال ، ونساء ذوات مآزر سود يحملن الأثقال ، وشيوخاً عليهم جلابيب بيض فاخرة وعمائم تكسوهم المهابة والوقار . وتقع العين من بعيد على ميادين فسيحة وقصور فخمة لا تقل جمالا عما شاده فيها البطالمة حين كانت الإسكندرية ملتقى العالم كله . ثم لا يلبث الإنسان أن يرى نفسه فجاءة فى الريف ويرى المدينة من ورائه تتراجع إلى أفق دال النهر الخصيبة ، وهى ذلك المثلث الأخضر الذى يبدو فى المصورات كجريد النخلة السامقة محمولا على جذع نهر النيل الرفيع .

وما من شك فى أن هذه الدال كانت فى يوم من الأيام خليجاً فى البحر ؛ طمره النهر الواسع طمراً بطيئاً لا تدركه العين بما ألقاه فيه من الغرين الذى حمله معه آلاف الأميال(*) . وفى هذا الركن الطينى الصغير الذى يكتنفه مصبّا النهر العظيم يُخرج ستة ملايين من الفلاحين قطناً يصدرون منه إلى خارج بلادهم ما قيمته مائة ألف ريال فى كل عام . وفى ذلك الصقع من أصقاع العالم يجرى أعظم نهر من أنهار الأرض وأوسعها ذكراً ، تسطع الشمس على مياهه البرّاقة الهادئة وتكتنفه من جانبيه أشجار النخل الرفيعة السامقة والحشائش والحقول الناضرة . وليس وسع فى المسافر أن يرى الصحراء الغربية من مجرى النهر العظيم أو الوديان الجافة التى كانت من قبل روافد له . ولا تستطيع فى هذه المرحلة أن تدرك ضيق أرض مصر الشديد ، واعتمادها التام على نهر النيل ، وما يحيط بها على الجانبين من رمال سافية تناصبها العداء .

ويمر القطار الآن وسط السهل الرسوبى المغطى بعضه بالماء ، والذى تخترقه قنوات الرى فى كل مكان ، وينتشر فيه الفلاحون يحدُون ويكدحون وليس عليهم

(*) يعتقد الجغرافيون القدماء أنفسهم (استرابون مثلا) أن أرض مصر كانت فيما مضى تغمرها مياه البحر المتوسط وأن صحاريها كانت فى قاع هذا البحر .

إلا القليل من الثياب ؛ والنهر يفيض فى كل عام ويبدأ فيضانه وقت الانقلاب الصيفى ويدوم نحو مائة يوم ؛ وماء الفيضان هو الذى أخصب للصحراء ، وأوجد مصر « هبة النيل » كما سماها هيرودوت ؛ ومن اليسير على الإنسان أن يدرك لماذا وجدت الحضارة فى هذا الوادى موطناً من أقدم مواطنها . ذلك أننا لا نجد فى أى بلاد أخرى فى العالم نهراً مثل نهر النيل سخياً بمائه ، يعلو بقدر ، ويسهل التحكم فيه ؛ وليس فى وسع بلاد أخرى أن تضارع مصر فى هذا إلا أرض الجزيرة ؛ ولقد ظل زراع مصر آلاف السنين يرقبون فيض النيل بقلوب واجفة ، ولا يزال المنادون إلى يومنا هذا فى أيام الفيضان يعلنون أنباءه فى كل صباح فى شوارع القاهرة . وهكذا ينحدر الماضى إلى المستقبل انحدار هذا النهر الهادئ الدائم الجريان ماراً فى طريقه بالحاضر مرا خفيفاً . إن تقسيم الأيام إلى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرخين ، أما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم ؛

لكن لكل هبة ثمنها ، ومهما يكن تقدير الفلاح لقيمة هذا الفيض العظيم فقد أدرك أنه إن لم يسيطر عليه فإنه لا يروى الحقول فحسب بل إنه يرويها ويخربها . ومن أجل هذا احتفر منذ عهود ما قبل التاريخ تلك القنوات التى تخترق أرض مصر طولا وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك ، واحتبس فيها المياه الزائدة(*) حتى إذا ما انخفضت مياه النهر رفعها إلى الأرض فى دلاء معلقة فى قوائم طويلة وأنشد وهو يرفعها الأغانى التى استمع إليها النيل من خمسة آلاف من السنين . ذلك أن هؤلاء الفلاحين الذين نراهم الآن منقبضين لا يضحكون حتى فى أثناء غنائهم لا يختلفون فى شىء عن أجدادهم الذين عاشوا على ضفاف النهر طوال القرون الخمسين الماضية(٣) . وهذا الجهاز الذى يرفع به الماء ، والذى لا نزال نشاهده الآن ، قديم قدم الأهرام نفسها ، ولا يزال مليون من هؤلاء الفلاحين يتكلمون

(*) ليس الغرض من إنشاء القنوات الاحتفاظ بالمياه الزائدة بل الغرض منها إيصال الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النهر . (المترجم)

اللغة المنقوشة على الآثار القديمة رغم انتشار اللغة العربية فى كافة أنحاء البلاد(*)(٤).

وفى أرض الوجه البحرى ، وعلى بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من الإسكندرية ، موقع مدينة نقراطيس القديمة التى كانت فى يوم من الأيام مدينة صناعية عظيمة يسكنها اليونان المجدُّون ، وعلى بُعد ثلاثين ميلا إلى شرق هذه المدينة موقع ساو (سايس أوْ صا الحجر) التى بعثت فيها الحضارة القومية المصرية آخر مرة فى القرون التى سبقت الفتح الفارسى والفتح اليونانى . وعلى بعد مائة وتسعة وعشرين ميلا فى جنوب الإسكندرية الشرقى تقع مدينة القاهرة . والقاهرة مدينة جميلة ولكنها ليست مصرية خالصة ، فقد شادها الفاتحون المسلمون فى عام ٩٦٨ بعد الميلاد . ثم أقام الفرنسيون المرحون فى قلب الصحراء باريس أخرى دخيلة غير حقيقية ، على النتائج أن يجتازها فى سيارة أو عربة تجرها الجياد ، إذا أراد أن يجتازها على مهل ، ليشاهد مصر القديمة عند الأهرام .

ولشد ما تبدو هذه الأهرام صغيرة الحجم حين ينظر الإنسان إليها من الطريق الطويل المؤدى إليها ، فهل قطعنا نحن هذه الرحلة الطويلة لنرى هذه الآثار الصغيرة ؟ لكنها لا تلبث أن يزداد حجمها كأن يداً قد رفعتها فى الهواء . ونصل إلى منحنى فى الطريق ، ونقبل فجأة على حافة الصحراء ، وتواجهنا الأهرام عارية منعزلة فى الرمال ، ضخمة شاهقة تسمو قممها فى سماء مصر الصافية . ونبصر عند سفوحها خليطاً من أجناس مختلفة — منهم رجال أشداء يركبون الحمير ذاهبين بها إلى أعمالهم ، ومنهم سيدات فى عربات نقل ، ومنهم شبان مرحون على ظهور الخيل ، وفتيات يجلسن فى غير اطمئنان على ظهور الجمال تلتمع ثيابهن الحريرية

(*) يقول المؤلف إنه استقى هذه المعلومات من كتاب إيرمن **Erman** « الحياة فى مصر القديمة **Life in Ancient Egypt** » . ولكننا لم نجد هذا القول أو ما يقرب منه فى كتاب إيرمن . ولعله يقصد بالمليون من الفلاحين الذين يتكلمون اللغة المنقوشة على الآثار ، أقباط مصر ولكن الأقباط لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة وليست اللغة القبطية هى بعينها لغة الآثار وإن احتوت بعض ألفاظ منها . وحتى هذه اللغة لا يتحدث بها الأقباط وإن درسها بعضهم . (المترجم)

فوق سيقانهن فى ضوء الشمس . ونرى فى كل مكان الأدلاء العرب على استعداد لمعونة القادمين وتأدية ما يلزمهم من خدمات ؛ ونقف حيث وقف قيصر ونابليون ، ونذكر أن خمسين قرناً تطل علينا ، نقف حيث جاء أبو التاريخ(*) قبل أن يجىء قيصر بأربعمائة عام ، واستمع إلى القصص التى دهش منها بركليز . ثم يسقط من الصورة عامل الزمن فيبدو لنا قيصر وهيرودوت ونحن أيضاً كأننا كلنا يعاصر قديمنا حديثنا ، ونقف ذاهلين أمام هـــذه المقادير التى كانت أقدم إلى قيصر وهيرودوت من اليونان بالنسبة إلينا .

وإلى جوار الأهرام يربض تمثال أبى الهول ، نصـــفه أسد ونصفه فيلسوف ، يقبض بمخالبه القوية على الرمال ؛ ويحدق بعينيه وهو ساكن لا يتحرك فى الزائرين العابرين وفى السهل الأزلى . إنه لتمثال ينتهى فيه جسم الأسد برأس إنسان ، له فكّان بارزان ، وعينان قاسيتان ، كأن المدنية التى صورته (٢٩٩٠ ق . م) لم تنس ما كان عليه الإنسان من وحشية فى سابق عهده . وكانت الرمال تغطيه فى الزمن القديم ، ولذلك لا يذكر هيرودوت كلمة واحدة عنه وهو الذى أبصر بعينيه أشياء كثيرة لا وجود لها تلك البلاد .

ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء . وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم فى طفولة التاريخ نفسها . لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهى تزن عدة أطنان إلى عاو خمسمائة قدم ؛ وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة فى تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدوا لهم أجورهم على عملهم هذا ! وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وحده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجل وثوم وبصل ، كأن

(*) يقصد هيرودوت . (المترجم)

هذه أيضاً أشياء لابد لها أن تخلد(*) . على أننا نغادر هذا المكان فى غير بهجة ، ذلك أنا نرى فى هذا الحرص الشديد على الضخامة شيئاً من النزعة الهمجية البدائية أو النزعة الهمجية الحديثة . إن ذاكرة من يشاهدها وخياله وقد تضخما بفعل التاريخ وتأثيره ، هما اللذان يخلعان العظمة على هذه الآثار . أما هى ذاتها فلا تعدو أن تكون دليلا على الغرور الباطل ، فهذه مقابر أراد بها الموتى حياة خالدة . ولعل الصور قد رفعت كثيراً من شأنها ، ذلك أن الصور الشمسية تستطيع أن تسجل كل شىء عدا الأقذار ، وأن تعظم من شأن أعمال الإنسان بما تحيطها به من مناظر الأرض والسماء . إن منظر غروب الشمس فى الجيزة لأعظم فى نظرنا من رؤية الأهرام .

٢ — مشرعة النهر

منف — روائع الملكة حتشبسوت — تمثالا ممنون —
الأقصر والكرنك — عظمة الحضارة المصرية

يركب المسافر من القاهرة باخرة صغيرة تصعد فى النهر — أى تسير فيه جنوباً — سيراً بطيئاً يستمر ستة أيام تصل بعدها إلى الكرنك والأقصر ، وتمر على بعد ثلاثين ميلا إلى جنوب القاهرة بموقع منف أقدم العواصم المصرية ، فى هذه المدينة كان يحكم الملوك العظام ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة ، وقد بلغ عامرها فى أيامهم مليونين من الأنفس ؛ والآن لا ترى العين فيها إلا صفاً من الأهرام الصغيرة وأيكة من النخل ؛ أما ما عدا هذا فهو صحراء لا آخر لها ، ورمال جرداء تغوص فيها الأقدام ، وتؤذى بوهجها الأعين وتسد مسام الجلد ، وتغطى كل شىء ، وتمتد من مراكش مخترقة طور سيناء وبلاد العرب والتركستان والتبت إلى

(*) ينول ديودور الصقلى (وهو كاتب يجب أن يقرأ على الدوام بحذر) : إن نقشا على الهرم الأكبر ينص على (أن ١٦٠٠ وزنة أى ٠٠٠و٠٠٠و١٦ (٥) ريال قد أنفقت فى شراء الخضر والمسهلات للعمال .

بلاد المغول . وفى هذه المِنْطقة الرملية التى تخترق قارتين من أكبر قارات العالم قامت مراكز الحضارة فى الزمن القديم ، ثم عفت آثارها حين ارتد الجليد إلى الوراء فاشتدت الحرارة وقلت الأمطار : ويمتد بحذاء النيل من البحر المتوسط(*) إلى بلاد النوبة شريط ضيق من الأرض الخصبة يبلغ عرضه اثنى عشر ميلا على كلتا الضفتين انتزع من الصحراء : وهذا هوالخيط الذى كانت تتعلق به حياة مصر . ومع هذا فما أقصر ما تبدوحياة اليونان أو رومة بالقياس إلى السجل الحافل فى حياة مصر الذى يمتد من مينا إلى كليوبطرة !

وبعد أسبوع من بداية الرحلة تصل الباخرة النيلية إلى الأقصر ؛ وفى هذا المكان الذى تقوم فيه قرى صغيرة من حولها الرمال السافية شيدت أكبر العواصم المصرية وأغنى مدينة فى العالم القديم ، كانت معروفة عند اليونان باسم طيبة وعند أهلها القدامى باسم ويزى ، ونى . وعلى الضِّفة الشرقية لنهر النيل يقوم الآن الفندق المعروف بقصر الشتاء (ونتر پالاس) يتوهج سياجه بزهر الجهنمية . فإذا أطل المسافر على الضفة الغربية رأى الشمس تغرب من وراء مقابر الملوك فى بحر من الرمال ، ورأى السماء مزدانة بصفحات براقة ما بين أرجوانية وذهبية ، وتسطع فى الغرب من بعيد أعمدة هيكل الملكة حتشبسوت الفخم ، إذا نظر إليه القادم من بلاد الغرب ظنه بهو أعمدة شاده اليونان أو الرومان الأقدمون .

فإذا أصبح الصباح ركب السائح قارباً بطيئاً يعبر به النهر فوق ماء هادئ ساكن ، فلايخطر بباله أن هذا النهر بعينه قد ظل يجرى على هذا المنوال قروناً يخطّها الحصر . فإذا عبر النهر إلى الضفة الغربية سار فى الصحراء ميلا بعد ميل فى طرق جبلية متربة . مارّاً بقبور تاريخية قديمة حتى يصل إلى تلك الآية الفنية الرائعة ، وأعنى بها هيكل الملكة حتشبسوت العظيمة ، التى ترتفع عمدُهُ البيضُ

(*) لعله يقصد من القاهرة أما ما يقع شمالها حتى البحر المتوسط فهو دال النهر التى تمتد أرضها الزراعية أضعاف هذا القدر . (المترجم)

الساكنة فى وهج السماء الصافية . وهنا اعتزم الفنان أن يحيل الطبيعة وتلالها إلى جمال أعظم من جمالها ، فشاد فى مواجهة أجراف الحجر الأعبل هذه العمد التى لا تقل فخامة عن العمد التى أقامها إكتينوس لبركليز . وليس فى وسع من يشاهدها أن يخالجه شك فى أن اليونان قد أخذوا فنون عمارتهم من هذا الشعب المبدع المبتكر ، ولعلهم أخذوها منه عن طريق جزيرة كريت . وعلى جدران هذا المعبد نقوش قليلة البروز تنبض بالحياة والحركة والفكر ، وتقص قصة أولى نساء التاريخ العظيمات وللملكة ليست أقل ملكاته شأناً .

ويشاهد المرء فى طريقه وهو راجع تمثالين كبيرين يمثلان أوفر ملوك مصر نعمة ، وهو الملك أمنحوتب الثالث ، ويسميهما الرحالة اليونان خطأ « تمثالى ممنون » . ويبلغ ارتفاع الواحد منهما سبعين قدماً ؛ ويزن سبعمائة طن ، وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة . وعلى قاعدة أحدهما نقش خطته يد السياح اليونان الذين زاروا هذه الآثار منذ ألفى عام . وهنا أيضاً تتضاءل الدهور تضاؤلا غريباً ويبدو هؤلاء اليونان فى حضرة هذين التمثالين العظيمين معاصرين لنا نحن . وعلى بعد ميل منهما جهة الشمال آثار حجرية من عهد رمسيس الثانى ، وهو شخصية من أروع الشخصيات فى التاريخ ، يبدو الإسكندر الأكبر إلى جانبها إنساناً لا قيمة له ولا خطر . لقد عاش هذا الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ، وأنجب من الأبناء مائة وخمسين . وتراه هنا تمثالا كان ارتفاعه فى يوم من الأيام ستا وخمسين قدما ، أما الآن فيمتد على الأرض بين الرمال ستا وخمسين يسخر منه الغادون والرائحون ، وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمس أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن . وكان حقاً على نابليون أن يحييه بما حيا به الفيلسوف جوته فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا الرجل ! » .

ومن حولنا فى هذا المكان على شاطئ النيل الغربى مدينة الموتى حيث

كشف علماء الآثار المصرية المنقبون فى كل ناحية من نواحيها قبراً لملك من الملوك . ولقد كان قبر توت عنخ آمون فى أثناء زيارتى مغلقاً ، مغلقاً حتى فى وجه من كانوا يظنون أن الذهب تفتح له جميع الأبواب .

أما قبر سيتى الأول فمفتوح ، وهنا فى الأرض الظليلة المائدة إلى البرودة يستطيع السائح أن يبصر سقفاً وطرقات منقوشة ، ويعجب بما كان للصناع فى ذلك العهد من مهارة ، وما كان فى البلاد من ثروة استطاعت بهما أن تنشئ أمثال هذه التوابيت الضخمة ، وأن تحيطها بهذا الفن الرائع . ولقد شاهد المنقبون فى أحد هذه المقابر آثار أقدام العبيد الذين حملوا جثة الملك المحنطة ليودعوها مقرها الأخير منذ ثلاثة آلاف عام(٦) .

هذا ما يشاهده السائح على الضفة الغربية . أما الضفة الشرقية فهى مزدانة بأحسن الآثار وأجملها : ففى الأقصر القائمة على هذه الضفة بدأ أمنحوتب العظيم يقيم صرحه الضخم مستعيناً بالمغانم التى أفاءتها على مصر فتوح تحتمس الثالث . ولكن المنية عاجلته قبل أن يتمه ، فوقف العمل مائة عام كاملة حتى جاء رمسيس الثانى وأتمه بما يليق بالملوك من أبهة . ولا يكاد المرء ينظر إلى هذا البناء حتى تغمره روح فن العمارة المصرية التى لا تقتصر مزاياه على السعة والقوة بل تجمع إليهما الجمال الرائع ودلائل الرجولة السامية . لقد كان فى هذا الصرح بهو عظيم فسيح الأرجاء تغطيه الرمال الآن ، ولكن أرضه فى الأيام الخالية كانت كلها من الرخام ، وتقوم على ثلاثة من جوانبه عمد فخمة لا تضارعها إلا عمد الكرنك وعدها . وفى كل بجهة حجارة عليها نقوش قليلة البروز وتماثيل تنم عن العظمة حتى بعد أن عدت عليها عوادى الزمان . فليتمثل القارئ ثمانية أعواد طويلة من أعواد البردى — مهد الكتابة ولكنه هنا طراز من طرز الفن ؛ ومن تحت أزهارها التى لا تزال فى أكمامها خمسة أربطة قوية تشد هذه الأعواد فتجمع بين

الجمال والقوة ، وليتصور بعدئذ أن هذه الحزمة كلها من صخر أصم ، تلك هي العَمَد المقامة فى الأقصر على هيئة نبات البردى . وليتصور القارئ بهواً مشيداً كله من هذه العمد مرفوعة عليها دعامات ضخمة وأكنان ظليلة . ليتصورها

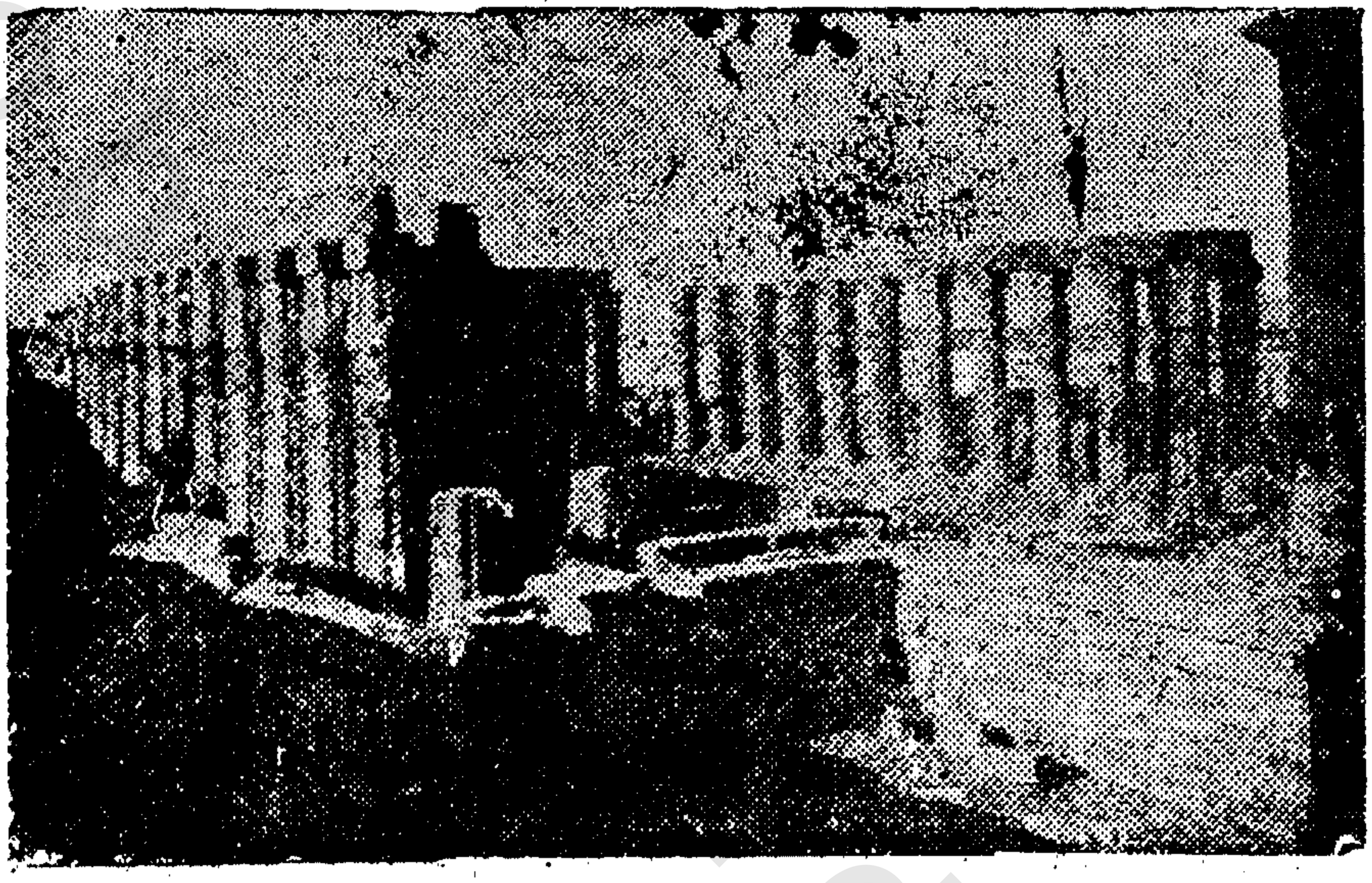

شكل (٧) البهو والعمد فى الهيكل العظيم فى الأقصر

القارئ بالصورة التى تركتها عليها عوادى ثلاثين قرنا ؛ ثم ليحكم بعدئذ على أقدار الرجال الذين استطاعوا فى ذلك العهد السحيق الذى كنا نسميه طفولة المدنية أن يفكروا فى هـــذه الآثار العظيمة ثم يخرجوا أفكارهم إلى حيز الوجود .

ثم يجتاز السائح بين الأطلال القديمة والآقدار الحديثة طريقا غير معبد يؤدى إلى هياكل الكرنك آخر ما احتفظت به مصر من آثارها لتعرضها على زائريها . وقد اشترك فى تشييدها نحو خمسين من الفراعنة منذ أواخر الدولة القديمة إلى أيام البطالمة . وأخذت هذه الهياكل تنمو ويزاد عديدها جيلا بعد جيل حتى غطت هذه الصروح — وهى أعظم ما قرّبه فن العمارة قرباناً للآلهة — ما لا يقل عن ستين فداناً من الأرض . وثمة طريق تحفه من الجانبين تماثيل أبو الهول يؤدى من هذه

الهياكل إلى المكان الذى وقف فيه شمپليون واضع علم الآثار المصرية القديمة عام ١٨٢٨ وكتب :

« وجئت آخر الأمر إلى القصر أو بعبارة أصح إلى مدينة الآثار — إلى الكرنك : وفيها تبدت لى عظمة الفراعنة بأكملها وشاهدت كل ما تصوره الناس وما أخرجوه فى أكبر صوره . . . وما من شعب قديم أو حديث غير قدماء المصريين قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو وهذه العظمة ، هذه الفخامة .

لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامة الواحد منهم مائة من الأقدام(٧) .

وليس فى وسع الإنسان أن يفهم هذا البناء على حقيقته إلا إذا كانت لديه خرائط ورسوم . وكان ملماً بكل ما بلغه فن العمارة من رقى . فليتصور القارئ رقعة فسيحة مسورة مربعة الشكل ، طول ضلع من أضلاعها ثلث ميل ، كثيرة الأبهاء ، كانت تحتوى فى وقت من الأوقات ٨٦٠٠٠ تمثال(٨) . أهم ما فيها مجموعة من المبانى يتألف منها هيكل أمون وطوله ألف قدم فى ثلثمائة ، وبين كل بهو وبهو أبواب عظيمة ؛ وأعمدة النصر التى أقامها نابليون مصر تحتمس الثالث وقد تهشمت تيجانها ولكنها لا تزال تشهد بدقة النحت والتصوير ؛ ثم بهو الاحتفالات ذو العمد المخددة التى شادها هذا الملك الباسل نفسه والتى تستبق كل ما فى العمد الدُّورية المقامة فى بلاد اليونان من قوة وعظمة ، ثم هيكل پتاح الصغير ذو العمد التى لا تقل رشاقة عن أشجار النخيل الحية القائمة بجوارها ، ثم المتنزه العظيم الذى أنشأه تحتمس أيضاً والذى يضم طائفة من العمد العارية الضخمة . وأعظم من هذا كله البهو(*) الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ عدتها مائة وأربعين ، متقاربة بعضها من بعض لتقى من فيها حر الشمس اللافح وتمثل فى أعلاها رءوس النخل منحوتة فى الحجارة ، وتحمل سقفاً من كتل

(*) فى متحف الفن بمدينة نيويورك نموذج لهذا البهو .

ضخمة من الحجارة منحوتة من الحجر الأعبل الصلب وممتدة من تاج عمود إلى تاج عمود . وبالقرب من هذه الردهة مسلتان رفيعتان كلتاهما من حجر واحد ، متماثلتان أتم تماثل ومتساويتان فى الجمال والرشاقة ، تقومان كأنهما

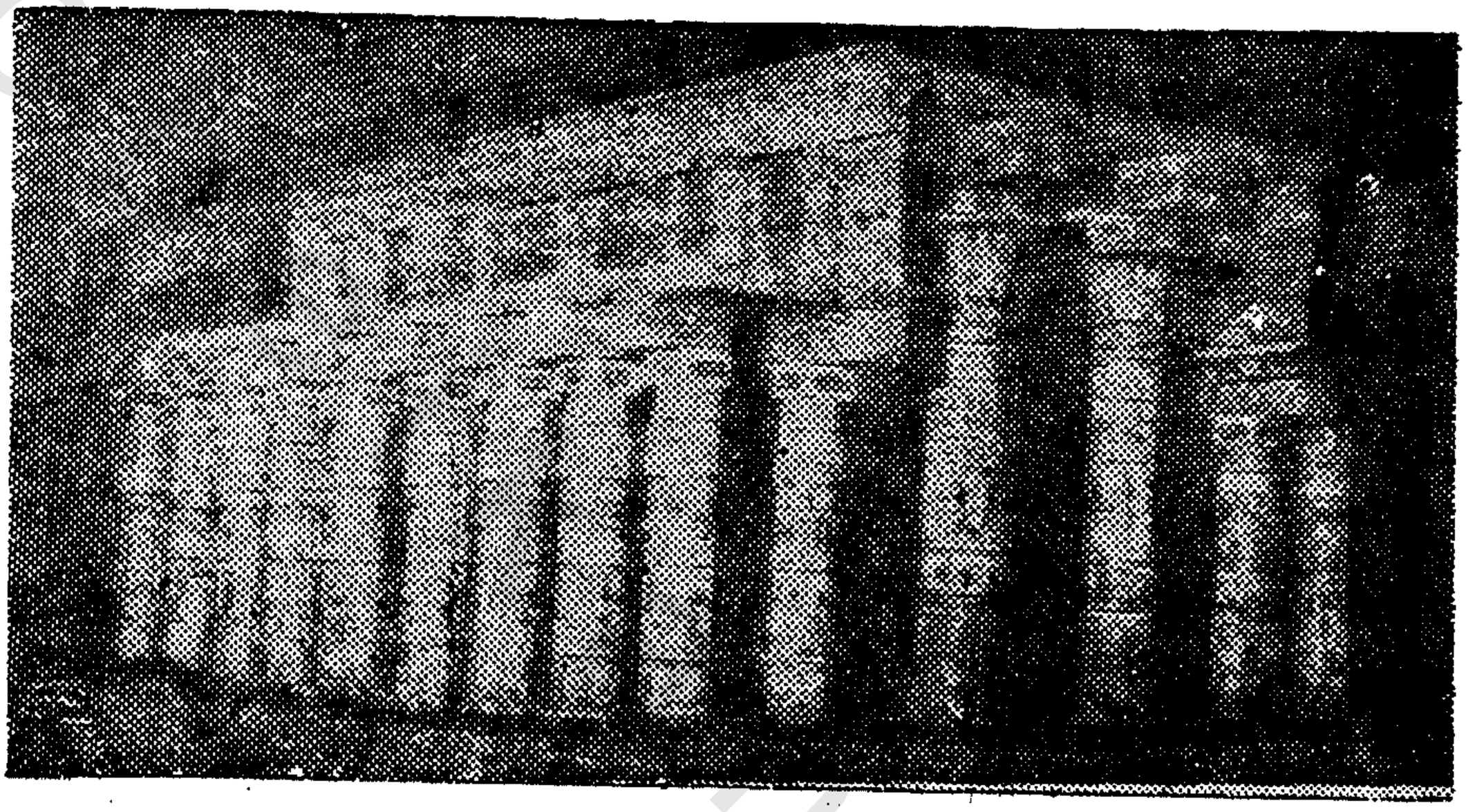

شكل (٨) صورة مستعادة للبهو ذى السقف المقام على العمد فى الكرنك

عمودان من النور بين حطام التماثيل والهياكل ، وتذيعان بما عليهما من النقوش رسالة الملكة الفخور حتشبسوت إلى العالم . وقد جاء فى هذا النقش أن « هاتين المسلتين قد صنعتا من الحجر الأعبل الصلد الذى جىء به من محاجر الجنوب ، وأن رأسيهما من الذهب الإبريز الذى اختير من أحسن ما حوته منه البلاد الأجنبية . ويمكن مشاهدتهما على النهر من بعيد ونورهما الساطع يشع فى الأرضين . وإذا ما لاح قرص الشمس بينهما بدا كأنه يبزغ حقاً فى أفق السماء . . . وأنتم يا من ترون هذين الأثرين بعد زمن طويل ويا من تتحدثون من بعدى عما فعلت ، ستقولون : إنا لا ندرى ، لا ندرى كيف أقاموا جبلا كله من الذهب . . . لقد أنفقت فى تذهيبهما ذهباً كنت أكيله كيلا كأنه أكياس الحب . . . ذلك أنى أعرف أن الكرنك أفق الأرض السماوى[٩] » .

أعظم بها من ملكة وأعظم بهم من ملوك ! أكبر الظن أن هذه الحضارة — أولى الحضارات العظيمة — كانت أجملها كلها ، وأكبر الظن أيضاً أننا لم نعدُ طور البداية فى الكشف عن عظمتها . وفى جوار بحيرة الكرنك المقدسة رجال يحفرون الأرض ويحملون التراب فى أسفاط صغيرة مزدوجة فى

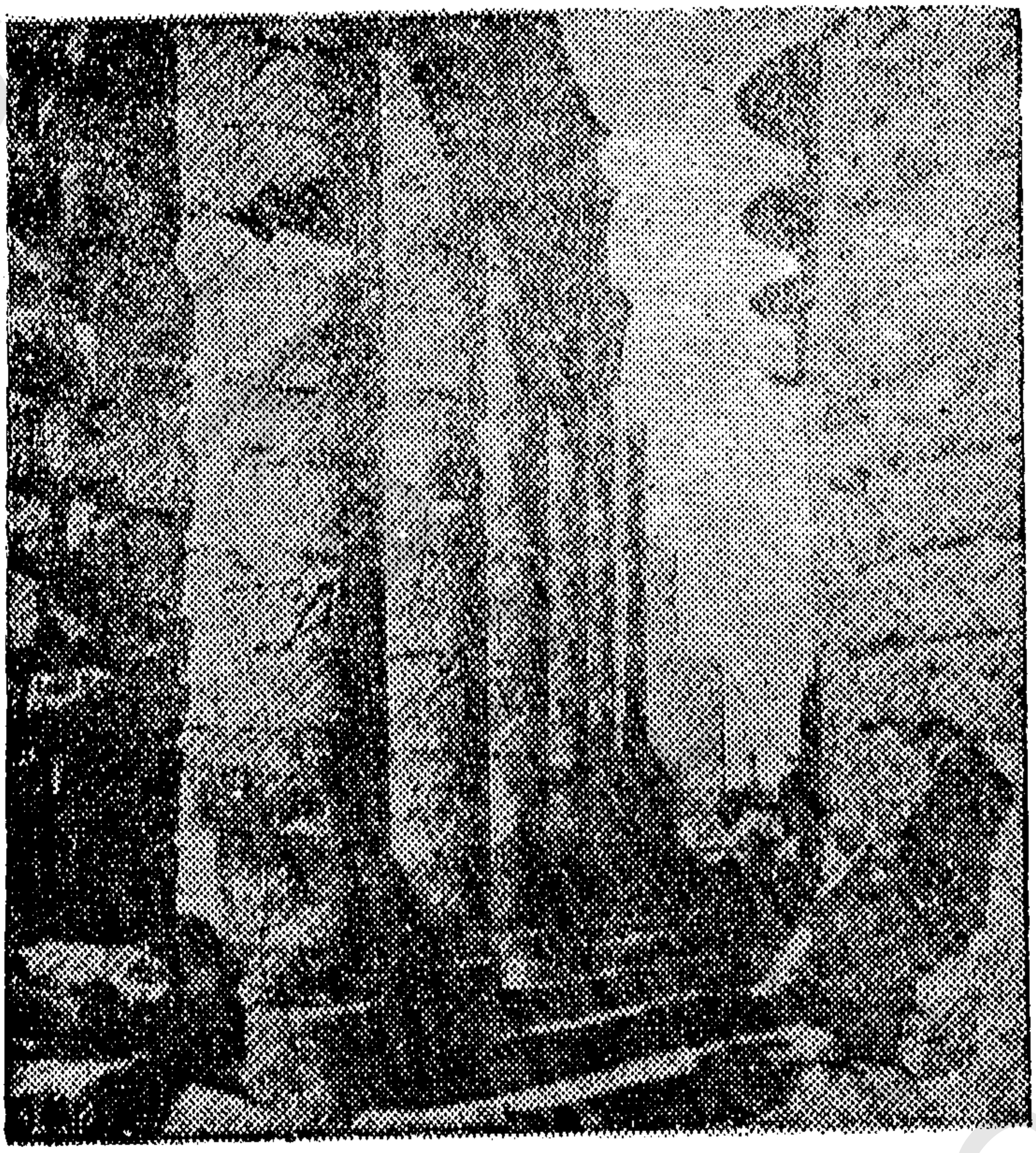

شكل (٩) عمد تحمل سقف البهو الكبير فى الكرنك

عصا على الكتفين . وإلى جانبهم عالم من علماء الآثار المصرية مكب على نقوش هيروغليفية على حجرين أخرجا من الأرض توا ، وهو واحد من آلاف الرجال أمثال كارتر ، وبرستد ، ومسپيرو ، وبيّرى ، وكاپار وويجال ، الذين عاشوا فى تلك البلاد عيشة البساطة والقناعة فى جرارة الشمس اللافحة والرمال السافية يحاولون أن يحلوا لنا طِلَّسْم أبى الهول ، وأن يختطفوا من بين أحضان الثرى الضنين

فنون مصر وآدابها وتاريخها وحكمتها ، والأرض والسماء تعاكسهم فى كل يوم ، والخرافات تلعنهم وتعوقهم ، والرطوبة وقوى التحات تغير فى كل يوم على الآثار التى يخرجونها من باطن الأرض ، وهذا النيل الذى يفيض على البلاد بالخصب والنماء يتسلل فى أيام فيضانه إلى خرائب الكرنك ، فيفك الأعمدة ويصدعها(*) ، ويترك عليها بعد أن ينحصر عنها طبقة من الأملاح تأكل الحجارة كما يأكل الجذام الأجسام .

والآن فلنستعرض مرة أخرى عظمة مصر ومجدها فى تاريخها وحضارتها قبل أن تتصدع آثارها وتنهار بين الرمال .

(*) فى ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ تفككت أحد عشر عمود من معبد الكرنك بتأثير الماء وهوت إلى الأرض .

الفصل الثانى

البناءون العظام

١ — كشف مصر

شمبليون وحجر رشيد

إن الكشف عن تاريخ مصر لهو أروع فصل فى كتاب علم الآثار . لقد كان كل ما تعرفه العصور الوسطى عن مصر أنها مستعمرة رومانية وموطن من مواطن المسيحية ، وكان الناس فى زمن النهضة يظنون أن الحضارة بدأت فى بلاد اليونان وحتى عصر الاستنارة(*) لم يكن يعرف من مصر أبعد من الأهرام . وكان علم الآثار المصرية نتيجة ثانوية من نتائج حروب نابليون الاستعمارية . ذلك أن القائد القورسيقى العظيم ، لما قاد الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ ، اصطحب معه طائفة من الرسامين والمهندسين ليرتادوا الأرض ويرسموها ، وشملت هذه الحملة أيضاً بعض العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً يظنه الناس سخيفاً فى تلك الأيام ، ويسعون لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون وقتئذ . وكانت هذه العصبة من الرجال هى التى كشفت للعالم الحديث عن هياكل الأقصر والكرنك : كما كان كتاب « وصف مصر » المحكم المفصل (١٨٠٩ — ١٨١٣) الذى أعدوه للمجمع العلمى الفرنسى أول خطوة هامة خطاها العلماء فى دراسة هذه الحضارة المنسية(١٠) .

على أن هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالا عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية . وليس ما بذله شمبليون أحد هؤلاء العلماء من جد وصبر أن

(*) يطلق هذا اللفظ على عصر الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

حل رموز الكتابة الهيروغليفية إلا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمى الذى امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شمپليون آخر الأمر على مسلّة مغطاة بهذه « الرموز المقدسة » مكتوبة باللغة المصرية ولكن فى أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوبطرة . وخطر له أن إحدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتى يحيط بها الإطار الملكى

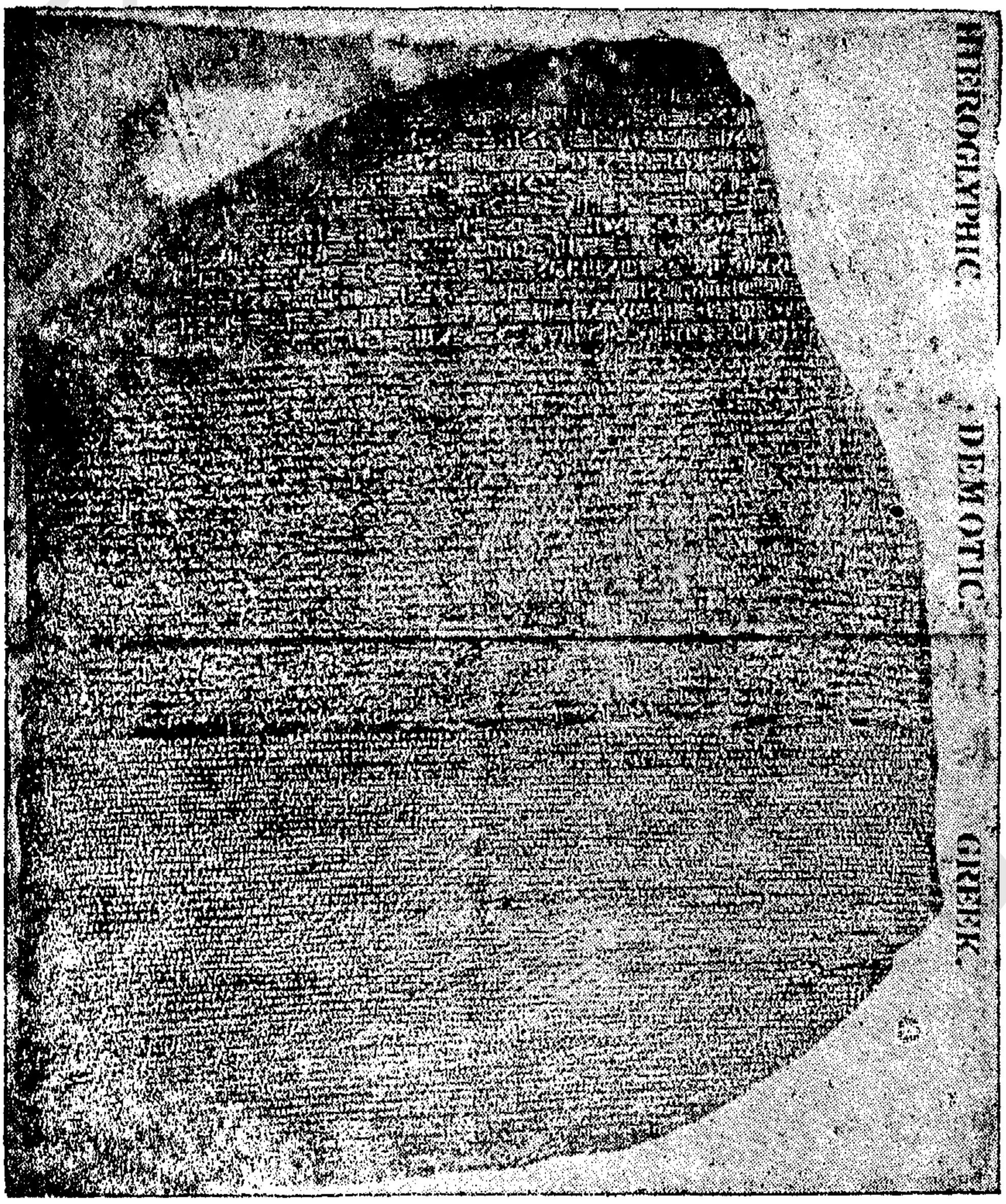

شكل (١٠) حجر رشيد
الأصل محفوظ فى المتحف البريطانى

(الخرطوش) هى اسم الملك والملكة ، فَهَدَتْه هذه الفكرة (فى عام ١٨٢٢) إلى تمييز أحد عشر حرفاً من الحروف المصرية ؛ ولكن ذلك كان مجرَّد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف أول دليل على أن مصر كانت لها حروف هجائية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر أسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب رشيد . وكان على « حجر رشيد » هذا(*) نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها الهيروغليفية وثانيتها « الديموطية » — الكتابة المصرية الدارجة — والثالثة هى اليونانية . واستطاع شمپليون ، بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التى عرفها من المسلة الأولى وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً ، أن يحل رموز هذا النقش كلها وأن يعرف الحروف الهجائية المصرية بأجمعها . وأن يمهد السبيل للكشف عن عالَم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف فى تاريخ التاريخ(**)(١١) .

٢ — مصر فى عصر ما قبل التاريخ

العصر الحجرى القديم — العصر الحجرى الحديث
عصر البدارى — عصر ما قبل الأسر — جنس المصريين

إن المتطرفين فى عصر من العصور هم أنفسهم الرجعيون فى العصر الذى يليه ، ومصداقاً لهذه القاعدة نقول إنه لم يكن ينتظر من الرجال الذين أنشأوا علم الآثار المصرية أن يكونوا أول من يؤمن بأن ما فى مصر من مخلفات العصر الحجرى القديم ينتمى حقاً إلى ذلك العصر . ذلك أن العالِم بعد الأربعين **لا يظل طلعة تباهما** ولمـــا أن كشفت أولى أدوات الظران فى وادى النيل قال سير

(*) وهذا الحجر محفوظ الآن فى المتحف البريطانى .

(**) وقد ساعد على هـــذا الكشف أكر بلاد السياسى السويدى (١٨٠٢) وتومس ينج العالم الطبيعى الإنجليزى صاحب الكفايات المتعددة (١٨١٤) بحلهما بعض رموز حجر رشيد(١٢) .

فلندزپيترى وهو الذى لا يتردد عادة فى قبول أكبر الأرقام فى تاريخ مصر ، إنها من صنع ما بعد الأسر . وعزا مسبيرو ، الذى لم يفسد علمه الغزير أسلوبه الممتع الجميل ، الفخار المصرى الباقى من العصر الحجرى الحديث إلى الدولة الوسطى . ولكن ده مورجان كشف فى عام ١٨٩٥ عن سلسلة متدرجة تكاد تكون متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجرى القديم — تطابق فى أكثر نواحيها الحضارات المماثلة لها والتى جاءت فى أوربا بعدها بزمن طويل . وكان ما كشفه من مخلفات هذه الحضارات المصرية رءوس معاول يدوية ، ومطارد ، ورءوس سهام ، ومطارق عثر عليها على طول مجرى النيل(١٣) وتتدرج مخلفات العصر الحجرى القديم تدرجا غير ملحوظ إلى مخلفات العصر الحجرى الحديث على أعمال تدل على أنها تنتمى إلى العهد المحصور ما بين ١٠٫٠٠٠ ، ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد(١٤) . وترقى صناعة الأدوات الحجرية شيئاً فشيئاً ، وتزداد تهذيباً ، وتصل إلى درجة من الحدة والصقل ودقة الصنع لا تضارعها فيها أى ثقافة أخرى وصل إلينا علمها من ثقافات العصر الحجرى الحديث(١٥) وقبيل أواخر هذا العهد تظهر صناعة المعادن فى صور مزهريات ومثاقب ودبابيس من النحاس وحلى من الفضة والذهب(١٦) .

ثم يتدرج ذلك العصر إلى العصور التاريخية وتظهر الزراعة فى أثناء هذا التدرج . وكان أول ما كشف من آثار عصر الانتقال فى مصر ١٩٠١ حين عثر فى بلدة البدارى الصغيرة (وهى فى منتصف المسافة بين القاهرة والكرنك) على جثث بين أدوات تنتمى إلى عهد يرجع إلى ما قبل المسيح بنحو أربعين قرناً . ووجدت فى أمعاء هذه الجثث ، التى أبقى عليها جفاف الرمال وحرارتها ستة آلاف عام ، قشور من حب الشعير(١٧) غير المهضوم . ولما كان الشعير لا ينبت بريا فى مصر فقد استدل من وجودها على أن البداريين كانوا يعرفون زراعة الحبوب . وقد بدأ سكان وادى النيل من ذلك العهد السحيق أعمال الرى

وقطعوا الأدغال ، وجففوا المستنقعات ، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه ، ووضعوا أسس الحضارة على مهل .

وتوحى إلينا هذه البقايا وبقايا أخرى غيرها بشىء من العلم عن حياة المصريين قبل الأسر الأولى التى عاشت فى الأزمنة التاريخية . لقد كانت ثقافة ذلك العهد ثقافة وسطاً بين الصـــيد والزراعة ، بدأت منذ قليل باستبدال الأدوات المعدنية بالحجرية ؛ وكان الناس فى أيامها يصنعون القوارب ، ويطحنون الْحَبّ ، ويلسجون الكتان والبسط ، ويتحلون بالحلى ، ويتعطرون بالعطور ، لهم حلاّقون وحيوانات مستأنسة ، وكانوا يحبون التصوير وبخاصة تصوير ما يصيدون من الحيوان(١٨) ، وكانوا يرسمون على خزفهم الساذج صوَر النساء الحزانى وصوَراً أخرى تمثل الحيوانات والآدميين ، وأشكالا هندسية ، وينحتون آلات غاية فى الدقة والأناقة يشهد بها سكين جبل الأراك ، وكانت لهم كتابة مصورة وأختام أسطوانية شبيهة بأختام للسومريين(١٩) .

وما من أحد يعرف من أين جاء هؤلاء المصريون الأوّلون ، ويميل بعض العلماء الباحثين إلى الرأى القائل بأنهم مه لدون من النوبيين والأحباش واللوبيين من جهة ، ومن المهاجرين الساميين والأرمن من جهة أخرى(٢٠) ، فالأرض حتى فى هذا العهد السحيق لم تسكنها سُلالات نقية . ويرجح أن الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسية قد جاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة أهل البلاد(٢١) ، وأن تزاوجهم مع هؤلاء الأهلين الأقوياء قد أنجب سلالة همجية كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشان فى جميع الحضارات . وأخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م شعب واحد هو الشعب الذى أوجد مصر التاريخية .

٣ — الدولة القديمة

الأقسام الإدارية — الشخصية التاريخية الأولى — كيوبس — « خفرن »
الغرض من بناء الأهرام — فن المقابر — التحنيط

وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق . م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما . فقد انقسم الأهلون المقيمون على شاطئ النهر أقساماً ينتسب سكان كل قسم منها إلى أصل واحد . وكان لهم شعار واحد ، ويخضعون لرئيس واحد ، ويعبدون إلها واحداً بمراسم وطقوس واحدة . وظلت هذه الوحدات الإقليمية قائمة طوال تاريخ مصر القديم ، وظل لحكامها نوع من السلطات يختلف قوة وضعفاً واستقلالا باختلاف قوة الملك الأعظم وضعفه . وإذ كان كل نظام مطرد النمو تجنح أجزاؤه لأن يعتمد بعضها على بعض فإن هذه الأقسام أخذت تنظم نفسها مدفوعة إلى هذا التنظيم بحاجات التجارة النامية وتكاليف الحرب المتزايدة حتى تكونت منها مملكتان واحدة فى الجنوب وأخرى فى الشمال . ولعل هذا التقسيم كان صورة أخرى من النزاع القائم بين الإفريقيين أهل الجنوب والمهاجرين الأسيويين أهل الشمال .

وقد سوى هذا النزاع الذى زاد من أثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) — وهو شخصية لا تزال يكتنفها بعض الغموض — القطرين تحت سلطانه الموحد ، وأعلن فى البلاد قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله تحوت[٢٢] ، وأقام أولى الأسر المالكة التاريخية ، وشاد عاصمة جديدة لملكه فى منف (منفيس) و (علم الناس) كما يقول مؤرخ يونانى قديم استخدام النضد والأسرة ... وأدخل فى البلاد وسائل النعيم والحياة المترفة[٢٣] .

ولم تكن أعظم شخصية حقيقية عرفها التاريخ شخصية ملك ، بل كانت شخصية فنّان وعالم ، وتلك هى شخصية إمحوتب الطبيب والمهندس ، وكثير

مستشارى الملك زوسر (حوالى ٣١٥٠ ق . م) وكان له على الطب المصرى من الفضل ما جعل الأجيال التالية تعبده وتتخذه إلها للعلم ومنشئ علومها وفنونها . ويلوح فى الوقت نفسه أنه هو الذى أوجد طائفة المهندسين التى أمدت الأسرة التالية بأعظم البنائين فى التاريخ .

وتقول الرواية المصرية إن أول بيت من الحجر قد أقيم بإشرافه ، وإنه هو الذى وضع تصميم أقدم بناء مصرى قائم إلى هذه الأيام وهو هرم سقارة المدرج ، وذلك الهرم بناء مدرج من الحجر ظل عدة قرون الطراز المتبع فى تشييد المقابر . ويلوح كذلك أنه هو الذى وضع تصميم هيكل زوسر الجنازى وأعمدته الجميلة الشبيهة بزهرة الأزورد (اللوطس)(*) وجدرانه المكسوة المتقامة من حجر الجير(٢٤) . وفى هذه الآثار القديمة القائمة فى سقارة ، والتى تكاد تكون بداية الفن المصرى فى العهود التاريخية ، تجد الأعمدة الأسطوانية المنقوشة التى لا تقل جمالا عما شاده اليونان منها فيما بعد(٢٥) كما نجد فيها نقوشاً بارزة تفيض واقعية وحيوية(٢٦) ، وخزفاً أخضر ، وفخاراً ملوناً مطلياً بطبقة زجاجية — يضارع ما أنتجته إيطاليا فى العصور الوسطى(٢٧) . ونجد هناك أيضاً تمثالا قوياً من الحجر لزوسر نفسه عدا عليه الدهر فطمس بعض معالمه التفصيلية ، ولكنه يكشف عن وجه ذى نظرات حادة ثاقبة وعقل مفكر(٢٨) .

ولسنا نعلم حقيقة الأحوال التى جعلت الأسرة الرابعة أهم الأسر الحاكمة فى تاريخ مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تكون الثروة المعدنية العظيمة التى استخرجت من أرض مصر فى عهد آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد تكون ما أحرزه التجار المصريون من تفوق فى تجارة البحر المتوسط ، وقد تكون قسوة خوفو(**) أول ملوك هذا البيت الجديد . وقد ترك لنا هيرودوت ماقاله له

(*) عن ابن البيطار .

(**) هو الذى يسميه هيرودوت كيوبس (حوالى ٣٠٩٨ — ٧٥ . . . ق . م) .

شكل (١١) رأس خفرع منحوت من حجر الديوريت

الكهنة المصريون عن منشئ أول هرم من أهرام الجيزة فقال :

« وهم يقولون لى الآن إن العدالة ظلت توزع بالقسطاس ؛ وإن الرخاء عم جميع أنحاء مصر إلى أيام حكم رحميستس ، ثم حكم بعده كيوپس فارتكب كل أنواع الخبائث ، ذلك بأنه أغلق جميع الهياكل . . . وسخر المصريين لخدمته وحده . . . فعين طائفة منهم لقطع الأحجار من المحاجر فى جبال العرب ونقلها إلى النيل ، وأمر طائفة أخرى باستقبال الحجارة بعد أن تنقل فى النهر على سفن . . . وكان يعمل منهم مائة ألف فى كل نوبة ، وكل نوبة تعمل ثلاثة أشهر ، وظل هؤلاء يكدحون عشر سنين فى إنشاء الطريق الذى كانت تنقل عليه الحجارة ، وهو عمل أرى أنه لا يقل مشقة عن تشييد الهرم نفسه(٢٩) »

أما خفرع (*) خليفته على العرش ومنافسه فى البناء فلدينا عنه معلومات مستقاة من الآثار نفسها . وذلك أن تمثاله المصنوع من حجر الديوريت والمحفوظ فى متحف القاهرة يصوره لنا بالصورة التى يمثل بها خيالنا من أنشأ هذا الهرم الثانى وحكم مصر ستاً وخمسين سنة إن لم يكن بالصورة التى كان عليها فعلا : فعلى رأسه الباشق رمز السلطة الملكية ، ولو لم يكن هذا الباشق على رأسه لأدركنا من هيبته ومن كل جزء صغير من جسمه أنه ملك(**) ؛ فالتمثال يصوره إنساناً مزدهياً ، صريحاً ، جريئاً ، ثاقب النظرات أشم الأنف ، قوياً فى تحفظ وهدوء . ويتضح من صورته هذه أن الطبيعة قد عرفت من زمن طويل كيف تصوغ الرجال ، وأن الفن قد عرف كيف يصورهم(+) .

ولم بنى هؤلاء الرجال الأهرام ؟ لقد كان هدفهم الدين لا فن العمارة ، فقد كانت الأهرام مقابر نشأت وتدرجت من القبور البدائية . ذلك أن الملك كان

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت خفرن (وقد حكم بين ٣٠٦٨ و ٣٤١١ ق م) .

(**) يردد المؤلف فى هذا الوصف ما قاله مسپيرو عن هذا التمثال . (المترجم)

(+) لعل اللفظ الأجنبى للهرم بيراميد مشتق من الكلمة المصرية بيرومس ومعناها ارتفاع لا من الكلمة اليونانية پير ـ ومعناها النار .

يعتقد كما يعتقد السوقة من شعبه أن فى كل جسم حى تستقر قرينة — كا — لا تموت حتما إذا لفظ الجسم آخر أنفاسه ، وأن هذه القرينة يُضمن بقاؤها بقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى . وكانت وسيلته للبقاء ومقاومة الموت هى الهرم لعلوه وضخامته وشكله وموقعه . وإذا نحن ضربنا صفحاً عن أركانه فقد كان شكله هو الشكل الطبيعى الذى تصير إليه طائفة متجانسة من المواد الصلبة إذا ما تركت تسقط على الأرض من غير أن يعوقها عائق ما . وإذا كان يقصد بها كذلك البقاء والخلود فقد وضعت الحجارة فى صبر لا يكاد يطيقه إنسان كأنما هى قد علت من تلقاء نفسها على جانب الطريق ، ولم تقتطع وتنقل من محاجر تبعد عن مكانها الحالى مئات الأميال . ويتكوّن هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية التى يبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً(٣٠) ومتوسط وزنها طنين ونصف طن ، وتبلغ مساحة قاعدته أكثر من نصف مليون قدم مربع ، ويعلو فى الهواء إلى ارتفاع ٤١١ قدما . وحجارته مندمجة بعضها فى بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبعض كتل ليكون طريقاً سرياً تنقل فيه جثة الملك . ويرشد الدليلُ السائح الذى يسير مرتجفاً على أربع إلى الكهف الذى احتوى جثة الملك على ارتفاع مائة خطوة من القاعدة فى قلب الهرم . وهناك فى مكان رطب مظلم ساكن فى أعماق ذلك الصرح لا يهتدى إليه إنسان استقرت فيما مضى من الأيام عظام الملك خوفو وزوجته ، ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً فى مكانه ، ولكنه محطم وفارغ لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنج الجثة من أيدى اللصوص كما لم تنجها جميع لعنات الآلهة .

ولما كانت القرية فى رأى المصريين الأقدمين صورة مصغرة للجسم نفسه فقد كان لابد من أن يقدم لها الطعام والكساء وما يلزمها من الخدمات بعد موت الجسد . ومن أجل هذا كانت تعد فى بعض المقابر الملكية دورات مياه لتنتفع بها الروح بعد فراق الجسد ، وتحتوى بعض النصوص الجنازية فقرات تعبر عن قلق

كاتبيها وخوفهم من أن تضطر القرينة إذا أعوزها الطعام إلى أن تطعم من فضلاتها[٣١] ، ومن الطبيعى أن يخطر بالبال أن عادات الدفن عند المصريين الأقدمين إذا ما تتبعناها إلى بدايتها قد تؤدى بنا إلى تلك العادة البدائية عادة دفن أسلحة المحارب وعدده مع جثته ، أو إلى نظام شبيه بما كان يتبعه الهنود وهو دفن زوجات الرجل وعبيده معه ، لكى يقوموا على خدمته وقضاء حاجاته بعد موته . وإذ كان فى اتباع هذه العادات كثير من المشقة على الأزواج والعبيد فقد عمد المصريون الأقدمون إلى استخدام الرسامين والمثالين لرسم للصور وحفر النقوش وصنع التماثيل الصغيرة التى تمثل الزوجات والعبيد . وقد جرت عاداتهم على أن ينقشوا عليها عبارات سحرية تبدل الصور والرسوم فتجعلها قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حقيقية . ولعل أبناء الميت قد ركنوا إلى التكاسل والاقتصاد فى النفقات فجنحوا إلى إهمال الواجبات التى كان الدين يفرضها عليهم فى أول الأمر ومنها تقديم الطعام للميت حتى فى الحالات التى وقف فيها من ثروته ما يفى بهذه النفقات . ومن أجل هذا كانت الصور المتخذة بديلا من الحقائق احتياطاً قائماً على الحكمة وحسن التدبير ، فقد كان فى وسعها أن تمد قرينة الميت بالحقول الخصبة ، والثيران الثمينة ، والعدد الجم من الخَدَم والصناع النشطين بنفقة قليلة مغرية . ولما كشف المصريون عن هذا المبدإ أخذ الفنانون ينتجون الشىء الكثير من روائع الفن . ففى أحد القبور صورة لحقل يُحرث ، وفى قبر آخر ترى المحصول يحصد أو يدرس ، وفى غيرهما ترى الخبز يسوَّى ، وفى رابع ترى الثور يلقح البقرة ، وفى غيره ترى العجل يولد ، وفى آخر ترى الماشية التى كبرت تذبح ، أو اللحم يقدم ساخناً فى الصحاف[٣٢] . ويمثل نقش جميل على حجر جيرى عثر عليه فى قبر الأمير راع حوتب الميت يستمتع بمختلف الأطعمة على مائدة مبسوطة أمامه[٣٣] . لعمرك إن الفن لم يفعل للإنسان فى عصر من العصور ما فعله لهؤلاء المصريين القدامى .

على أنهم لم يكتفوا بهذا بل رأوا آن يضمنوا للقرينة طول الأجل بدفن الجثة فى تابوت من أقسى الحجارة ، وبتحنيطها تحنيطاً كلفهم بلا شك أعظم الجهد والمشقة . وقد برعوا فى هذا الفن براعة أبهت على قطع من الشعر واللحم عالقة بالعظام الملكية . وما أجمل وأوضح ما وصف به هيرودوت فن التحنيط حين قال :

« أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهـــذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بإدخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة فى جنب الميت بحجر حاد وأخرجوا منها جميع أحشائه ، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ، ثم ملأوا البطن بالمر النقى وبعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ، فإذا ما فعلوا هذا كله عمروه فى منقوع النظرون(*) وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها فى أحزمة من القماش المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فإذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه ، وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى جداره ؛ وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التى يزيدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات(٣٤) » .

ويقول أحد الأمثال المصرية المأثورة : « إن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام(٣٥) » ؛ غير أن هرم خوفو رغم هذا قد نقص من ارتفاعه عشرون قدماً ، وزال عنه كل غطائه الرخامى . ولعل الزمان لا يرهبه كل الرهبة بل يفعل به مايفعل بغيره ، وكل مافى الأمر أنه يبليه على مهل . وإلى

(*) سلكات الصوديوم والألومنيوم .

بجانب هذا الهرم الأكبر يقوم هرم خفرع ، وهو أصغر من الأول قليلا ، ولكن قمته لا يزال يكسوها غشاء من الحجر الأعبل (الجرانيت) الذى كان من قبل يغطيه كله ، وعلى مسافة من هذا الهرم الثانى يقوم هرم آخر متواضع هو هرم منقورع خليفة خفرع على عرش مصر(*) . وهذا الهرم لا يغطيه الحجر الأعبل بل تغطيه طبقة وضيعة من الآجر كأنها تعلن للعالم أن الدولة القديمة كانت تؤذن بالزوال حين كان الملك يشيد هذا الهرم : ويصور ما وصل إلينا من تماثيل منقورع هذا الملك فى صورة رجل أكثر رقة وتهذيباً وأقل قوة من خفرع(**) . إن الحضارة كالحياة تُفنى ما بلغت به حد الكمال ، ولعل النعيم والترف حتى فى هذا العهد السحيق ، ولعل ما طرأ على العادات والأخلاق من تطور ورقّ ، لعل هذا كله قد جعل الناس يحبون السلم ويبغضون الحرب . وقام فجأة إنسان جديد ، اغتصب عرش منقورع وقضى على أسرة بُناة الأهرام .

٤ — الدولة الوسطى

عهد الإقطاع — الأسرة الثانية عشرة — سيطرة الهكسوس

لم يكن الملوك فى بلد من البلاد بالكثرة التى كانوا بها فى مصر القديمة ، والتاريخ يضمهم جميعاً فى أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة ؛ ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التى لا تطيق كثرتها(†).

(*) وهو الذى يسميه هيرودوت ميسرنيس (حكم من ٣٠١١-٢٩٨٥ ق . م تقريبا)

(**) انظر تمثال منقورع وزوجته فى متحف الفن بنيويورك .

(†) وقد أراد المؤرخون أن يسهلوا الأمر على أنفسهم فجعلوا الأسر فى عصور هى (١) عصر الدولة القديمة وتشمل الأسر من الأولى إلى السادسة (٣٥٠٠ — ٢٦٣١ ق . م) وتليها فترة من الفوضى وتعقبها (٢) الدولة الوسطى وتشمل الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة (٢٣٧٥ — ١٨٠٠ ق . م) ثم تأتى بعدها فترة أخرى من الاضطراب والفوضى يليها (٣) عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ، وتشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ — ١١٠٠ ق . م) . وأعقبها عصر انقسمت فيه البلاد أقساما وكان لها عدة عواصم . ثم جاء (٤) عصر ساو (التى يسميها اليونان سايس والتى تسمى الآن صا الحجر)=

وحكم مصر پيپى الثانى أحد هؤلاء الفراعنة أربعاً وتسعين سنة (٢٧٣٨ — ١٦٤٤ ق . م) وحكمه هذا أطول حكم فى التاريخ كله ، فلما مات عمت الفوضى البلاد وأدت إلى الانحلال وخسر خلفه عرشه ، وحكم أمراء الإقطاع المقاطعات حكماً مستقلا . وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية تتوالى بانتظام ، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى . وطغى على البلاد « عصر مظلم » سادته الفوضى أربعة قرون ، ثم قام بعدها رجل قوى الإرادة شبيه بشارلمان فى عصور أوربا المظلمة ، فقبض بيد من حديد على زمام الأمور ، وأعاد النظام إلى البلاد ، ونقل العاصمة من منف إلى طيبة ، وتسمى باسم أمينمحيت الأول ، وأسّس الأسرة الثانية عشرة . وفى عهد هذه الأسرة ازدهرت الفنون جميعها — مع جواز استثناء فن العمارة — وبلغت من الإتقان درجة لم تبلغها فيما نعرفه من تاريخ مصر قبل هذه الأسرة أو بعدها .

ويتحدث إلينا أمينمحيت فى أحد النقوش القديمة بقوله :

كنت رجلا زرع البذور وأحب إله الحصاد ؛
وحياتى فى النيل وكل وديانه ؛
ولم يكن فى أيامى جائع ولا ظمآن ؛
وعاش الناس فى سلام بفضل ما عملت وتحدثوا عنى .

وكان جزاؤه أن ائتمر عليه مَن أعلى شأنهم ووضعهم فى المراكز السامية من الوزراء والمستشارين . وقضى أمينمحيت على هذه المؤامرة ، وبطش بالمتآمرين ، ولكنه خلف لابنه — كما فعل پولونيوس من بعده — ملفاً من الأوراق يحوى نصيحة مُرَّة ، هى فى واقع أمرها قاعدة عجيبة للحكم المطلق ، ولكنها ثمن باهظ يبتاع به الملك عرشه :

= ويشمل الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق م) . وكل التواريخ الواردة هنا ما عدا الأخير منها تواريخ تقريبية . ويجد علماء الآثار بعض التسلية فى تأخير هذه التواريخ أو تقديمها عدة قرون .

استمع إلى ماسأقوله لك ،
حتى تكون ملك الأرض . . . ،

وتزيد فيها الخمر

اقس عنى جميع من هم دونك —
فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم ،
ولا تقترب منهم بمفردك ،
ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ ،
ولا تعرف صديقا . . . ،
وإذا نمت فاحرس بنفسك قلباك .
لأن الإنسان لا صديق له فى أيام الشر[٣٦] .

ولقد أقام هذا الملك الصارم الذى يبدو لنا من خلال أربعة آلاف من السنين حاكماً رحيما ، نظاماً من الحكم والإدارة دام خمسمائة عام ، أثرت فيه البلاد مرة أخرى ، وعاد فيه الفن إلى سابق عهوده الزاخرة . واحتفر سنوسريت الأول قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وصد الغزاة النوبيين وشاد الهياكل العظيمة فى عين شمس والعرابة والكرنك . ولقد نجت من عبث الدهر عشرة تماثيل ضخمة تمثله جالساً ، وهى الآن فى متحف القاهرة . وبدأ سنوسريت آخر هو سنوسريت الثالث يخضع فلسطين لحكم مصر ، وردّ النوبيين الذين لم يكونوا ينقطعون عن الإغارة على حدودها الجنوبية ، ووضع لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها « رغبة فى أن تعبدوها ، بل طمعاً فى أن تحاربوا من أجلها »[٣٧] . وكان أمنمحيت الثالث إدارياً حازماً عنى بحفر الترع وتنظيم وسائل الرى ، وقضى (ولعله قد أسرف فى هذا القضاء) على أمراء الإقطاع ، وأحل محلهم موظفين معينين من قبل الملك ؛ وبعد ثلاثة عشر عاماً من موته عاد الاضطراب إلى مصر على أثر النزاع الذى قام بين المتنافسين المطالبين بالعرش ، وانقضى عهد الدولة الوسطى فى حال من الفوضى

والتفكك دامت مائتى عام . ثم غزا الهكسوس ، وهم بدو من آسية ، مصر المتقطعة الأوصال ، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها ، وقضـــوا على كثير من معالم فنونها ، وأخضعوا وادى النيل مدى قرنين لحكم « ملوك الرعاة »(*) . لقد كانت المدنيات القديمة جزائر صغرى فى بحار من الهمجية ، أو محلات رخية يحيط بها الجياع والحساد من الصيادين والرعاة ذوى النزعة الحربية . وكانت حصونها عرضة للتصدع والانهيار من حين إلى حين . بهذه الطريقة أغار الكاشيون على دولة بابل ، وهاجم الغاليون بلاد اليونان والرومان ، واجتاح الهون إيطاليا ، وهاجم المغول بيچنج .

لكن الفاتحين لم يلبثوا هم أيضاً أن سمنوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم ، وجمع المصريون شملهم وشنوا حرباً عواناً يبغون بها تحرير بلادهم ، فطردوا الهكسوس ، وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة التى بلغت البلاد فى أيامها درجة من القوة والمجد لم تبلغها قط من قبل .

٥ — الإمبراطورية

الملكة العظيمة — تحتمس الثالث — ذروة المجد

لعل هذا الفتح قد جدد شباب مصر بما أدخله فيها من دم جديد ، ولكنه كان إيذاناً بابتداء كفاح طويل مرير بين مصر وغربى آسية دام ألف عام . ذلك أن تحتمس الأول لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سوريا أيضاً بحجة أن مصر يجب أن تسيطر على غربى آسية لكى تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش فى الداخل ، ووضع فيها حاميات من عنده ، وفرض عليها الجزية ، ثم عاد إلى طيبة مثقلا بالغنائم ومكللا بالمجد الذى يكلل على الدوام هامة من يقتل بنى الإنسان . وفى آخر العام الثلاثين

(*) يعتقد كثيرون من المؤرخين أن ترجمة كلمة هكسوس بالرعاة ترجمة خاطئة وأنهم لم يكونوا رعاة بل « ملوك أقاليم » . (المترجم)

من حكمه رفع ابنته حتشبسوت إلى العرش لتكون شريكة له فى الملك . وحكم من بعده زوجها وأخوها لأبيها باسم تحتمس الثانى ، وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه(٣٨) . ولكن حتشبسوت نحّتْ هذا الشاب الذى علا نجمه فيما بعد ، واستأثرت دونه بالملك ، وأثبتت أنها لا تختلف عن الملوك فى شىء إلا فى أنها أنثى .

على أنها لم تعترف حتى بهذا الفرق . ذلك أن التقاليد المقدسة كانت تتطلب من كل ملك مصرى أن يكون ابن الإله العظيم أمون ، ومن أجل هذا أعدّت حتشبسوت العدة لأن تكون ذكراً وأن تكون مقدسة ، فاخترعت لها سيرة نصت على أن أمون نزل على أحْمَسى أم حتشبسوت فى فيض من العطر والنور ، فأحسنت هذه استقباله ، ولما خرج من عندها أعلن أن أحمسى ستلد ابنة تشع على الأرض كل ما يتصف به الإله من قوة وبسالة(٣٩) . وأرادت الملكة العظيمة بعدئذ أن ترضى أهواء شعبها ، ولعلها أرادت أيضاً أن تشبع رغبة كامنة فى صدرها ، فعملت على أن ترسم على الآثار فى صورة محارب ملتح من غير ثديين ؛ ومع أن النقوش الباقية من عهدها تتحدث عنها بضمير المؤنث ، فإنها تسميها « ابن الشمس » و « سيد القطرين » . وكانت حين تظهر أمام شعبها تلبس ملابس الرجال ، وتلتحى لحية مستعارة(٤٠) .

ولعلها كان من حقها أن تقرر بنفسها أتكون رجلا أم امرأه ، وذلك لأنها أضحت من خير الحكام الذين جلسوا على عرش مصر — وهم كثيرون — ومن أعظمهم نجاحاً . فلقد وطدت دعائم الأمن والنظام داخل البلاد من غير أن تسرف فى الاستبداد ، وحافظت على السلم خارج مصر من غير خسارة ، وأرسلت بعثة عظيمة إلى پونت (ويرجح أن پونت هذه هى شاطئ أفريقية الشرقى) ، وافتتحت سوقاً جديدة لتجارة مصر ، وجاءت بكثير من الطابات لشعبها . وعملت على تجميل الكرنك بأن أقامت فيها مسلتين كبيرتين جميلتين ، وشيدت فى الدير

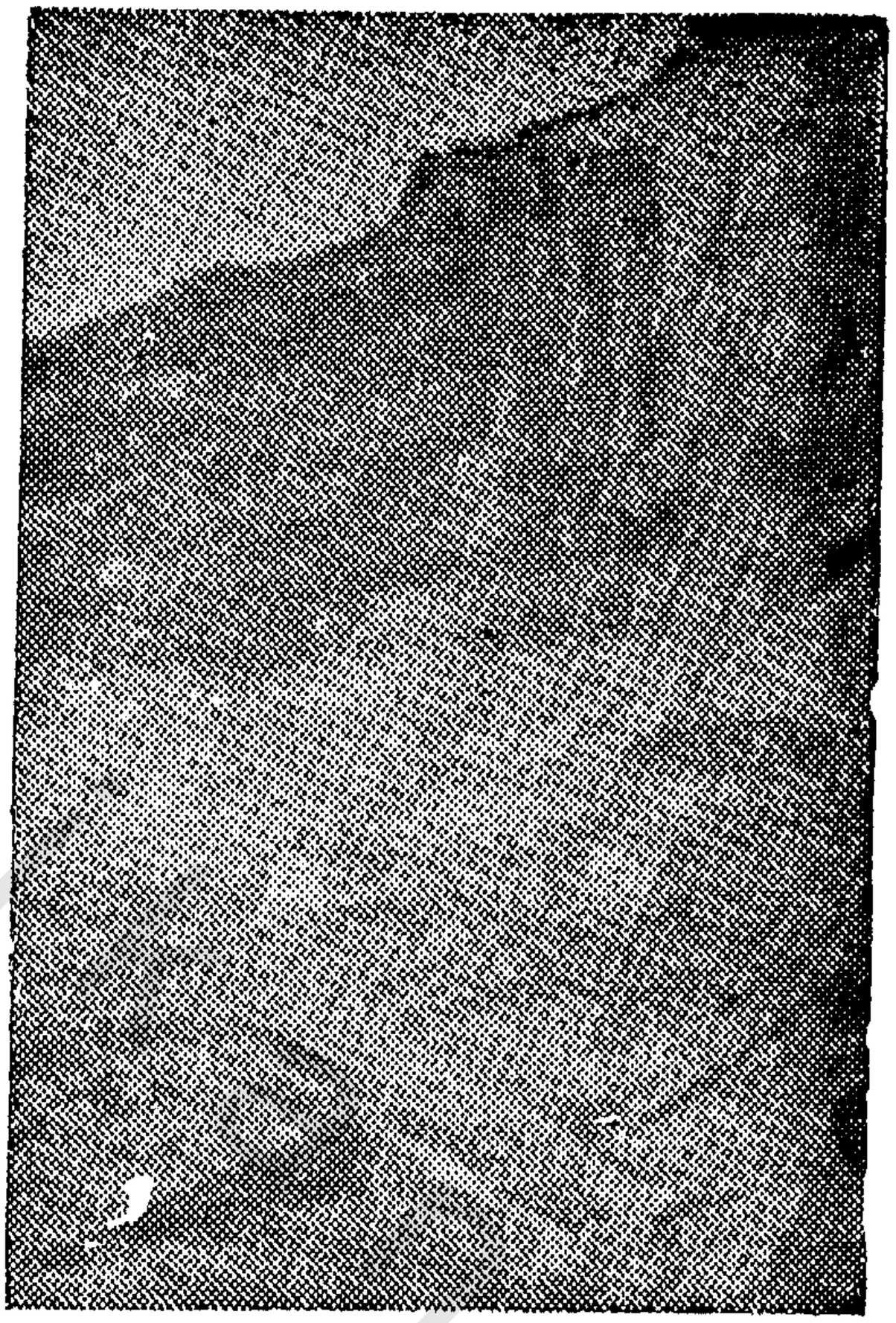

شكل (١٢) هيكل الدير البحرى

البحرى الهيكل الفخم الذى اختطه أبوها ، وأصلحت بعض ما خربه ملوك الهكسوس من الهياكل القديمة ، وقالت فى أحد نقوشها تفخر بأعمالها : « لقد أصلحت ما كان من قبل مخربا ؛ وأكملت ما لم يكن قد تم تشييده حين كان الأسيويون فى وسط الأرض الشمالية يهدمون فيها ما كان قائماً قبلهم[٤١] » . ثم أنشأت لنفسها آخر الأمر قبراً سرياً مزخرفاً بجوار الجبال التى تطغى عليها الرمال على الضفة الغربية للنيل فى المكان الذى سمى فيما بعد « وادى مقابر الملوك » . وحذا خلفاؤها فى ذلك حذوها ، حتى كان عدد القبور المنحوتة فى التلال قرابة ستين قبراً ملكياً ، وحتى أخذت مدينة الموتى تنافس فى عدد سكانها طيبة مدينة الأحياء ، وكانت « الحافة الغربية » فى المدن المصرية القديمة مواطن الموتى من الطبقة العليا ؛ وكانوا إذا قالوا إن فلاناً « ذهب غرباً » قصدوا بقولهم أنه مات .

ودام حكم هذه الملكة اثنتين وعشرين سنة كان فيها حكماً سلميا حكيما . ثم خلفها تحتمس الثالث وكان حكمه مليئاً بالحروب ، فقد انتهزت بلاد سوريا فرصة موت حتشبسوت فثارت على مصر ، وظن أهلها أن تحتمس الثالث ، وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، لن يستطيع الاحتفاظ بالدولة التى أقامها أبوه . ولكن تحتمس لم يقعد عن العمل فسار على رأس جيشه فى السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة وغزة بسرعة عشرين ميلا فى كل يوم ، والتحم بالقوات الثائرة عند هار مجدو (أى جبل مجدو) ، وهى بلدة صغيرة ذات موقع حربى منيع بين سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر الفرات ، وهى بعينها مجدن التى وقعت فيها عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى أيام أللنبى . وفى نفس الممر الذى هزم فيه الإنجليز الأتراك فى عام ١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى هزَم تحتمس الثالث السوريين وحلفاءهم قبل ذلك بثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة وتسعين عاماً . ثم سار تحتمس مظفراً مخترقاً غربى آسية يخضع أهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخرَاج : وعاد بعدئذ إلى طيبة منتصراً بعد ستة أشهر من بداية زحفه (*)(٤٢) .

وكانت هذه الحملة أولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة أخضع فيها تحتمس الباسل بلاد البحر المتوسط الشرقى لحكم مصر . ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل إنه عمل أيضاً على تنظيم فتوحه ، فأقام فى جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية وأنشأ فيها حكماً منظماً قديراً . وكان تحتمس أول رجل فى التاريخ أدرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم ، فأنشأ أسطولا أخضع لسلطانه بلاد الشرق الأدنى . وكان ما ظفر به من الغنائم عماد الفن المصرى فى عهد الإمبراطورية ، كما كان الخرَاج الذى أخذ ينصب فى مصر من بلاد الشام منشأ حياة الدعة والنعيم التى تمتع بها شعبه ، فوجدت فى مصر طبقة جديدة من الفنانين غمرتها بروائع الفن . وفى وسعنا أن نتصور إلى حد ما ثروة الحكومة الإمبراطورية الجديدة إذا عرفنا

(*) تطلب هذا العمل نفسه من ألنبى ضعفى هذا الزمن ، وحاول نابليون أن يقوم بمثله فى عكا فأخفق .

أن خزانة الدولة استطاعت فى يوم من الأيام أن تخرج منها ما زنته تسعة آلاف رطل من سبائك الذهب والفضة(٤٣) . وراجت التجارة فى طيبة رواجاً لم تعهده من قبل ، وناءت المياكل بالقربان ، وارتفع صرح بهو الاحتفالات الملكية فى الكرنك ، وأنشئ فيها المتنزه العظيم بما يتفق مع عظمة الإله والملك . ثم عاد الملك من ميدان القتال ووجّه عنايته للفن وإدارة شئون البلاد . ومن أجمل آثار ذلك العهد المزهريات البديعة النقش . وقال عنه وزيره ماكان أمناء سر نابليون المتعبون المنفيون يقولون عنه « إن جلالته كان يعرف كل ما يحدث ، فما من شيء كان يجهله ؛ فقد كان إله المعرفة فى كل شيء ؛ ولم تكن هناك مسألة لا يفصل فيها بنفسه(٤٣) » . وتوفى الملك بعد أن حكم اثنتين وثلاثين سنة (ويقول بعضهم إنها خمسا وأربعين) ، وبعد أن أتم لمصر زعامتها فى عالم البحر المتوسط .

وجاء من بعده فاتح آخر هو أمنحوتب الثانى فأخضع مرة أخرى بعض عشاق الحرية فى سوريا ، وعاد إلى طيبة وفى ركابه سبعة ملوك أسرى أحياء مطأطئى الرءوس فى مقدم السفينة الإمبراطورية . وقدم الملك ستة منهم قرباناً لأمون ضحى بهم بيده(٤٤) . ثم خلفه تحتمس آخر حامل الذكر ، جلس بعده على العرش فى عام ١٤١٢ أمنحوتب الثالث فحكم البلاد حكماً طويلا ارتفعت مصر فى خلاله إلى ذروة المجد بفضل ما تجمع فيها من الثروة خلال سيادتها التى دامت قرناً كاملا . وفى المتحف البريطانى تمثال نصفى لهذا الملك يمثله فى صورة رجل يجمع بين الرقة والقوة ، فى وسعه أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور فى إمبراطوريته التى ورثها ، وأن يعيش مع هذا فى جو من الدعة والنعيم لعل بترونيس أو آل مديشى كانوا يحسدونه عليه . ولولا ما كشف من مخلفات توت عنخ أمون لما صدقنا ما تقصه الروايات وما تدوّنه السجلات من ثراء أمنحوتب ومظاهر ترفه . وقد بلغت طيبة فى عهده من العظمة والفخامة ما بلغته أية مدينة أخرى فى عهود التاريخ كلها . فكانت شوارعها غاصة بالتجار ، وأسواقها مملوءة بالبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومبانيها ، تفوق فى فخامتها جميع

مبانى العواصم القديمة والحديثة »[٤٥] وقصورها الرائعة تستقبل الخراج من طائفة لا حصر لها من الولايات الخاضعة لحظاتها ، وهياكلها الضخمة « محلاة كلها بالذهب »[٤٦] ومزينة بروائع الفنون على اختلاف أنواعها ، وبيوتها ذات الحدائق وقصورها الفخمة وستنزهاتها المظللة وبحيراتها الصناعية التى كانت مسرحاً لكل ما هو جديد من الأزياء والأنماط ، كما كانت رومة فى عهد الإمبراطورية[٤٧] ، هذه هى عاصمة مصر فى أيام مجدها وفى أيام مليكها الذى بدأ من بعده اضمحلالها وسقوطها .

الفصل الثالث

حضارة مصر

١ — الزراعة

كان من وراء هؤلاء الملوك والملكات بيادق مجهولون ، ومن وراء تلك الهياكل والقصور والأهرام عمال المدن وزراع الحقول(*) . ويصفهم هيرودوت كما وجدهم حوالى عام ٤٥٠ ق . م وصفاً تسوده روح التفاؤل فيقول :

« إنهم يجنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب ، . . لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى عزقها أو القيام بعمل كالذى يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكى يجنوا من ورائه محصولا من الحَبّ ، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم ، ثم انحسر ماؤه عنها بعد إروائها ، زرع كل رجل أرضه وأطلق عليها خنازيره ؛ فإذا ما دفنت هذه الخنازير الحَبّ فى الأرض بأرجلها انتظر حتى يحين موعد الحصاد ، ثم . . . جمع المحصول(٤٩) » .

وكما كانت الخنازير تدوس الحب بأرجلها كذلك أُنِّست القردة ودربت على قطف الثمار من الأشجار(٥٠) ، وكان النيل الذى يروى الأرض يحمل لها فى أثناء فيضانه مقادير كبيرة من السمك يتركها فى المناقع الضحلة : وكانت الشبكة التى يصطاد بها السمك هى بعينها التى يحيط بها رأسه أثناء الليل ليتقى بها شر لذع البعوض(٥١) . على أنه لم يكن هو الذى يفيد من سخاء النهر ، ذلك بأن كل فدان من الأرض كان ملكاً لفرعون لا يستطيع غيره من الناس أن ينتفعوا به إلا بإذن

(*) كان سكان مصر فى القرن الرابع قبل المسيح يقدرون بنحو سبعة ملايين نسمة .

منه . وكان على كل زارع أن يؤدى له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عُشر(٥٢) المحصول وخُمسه(٥٣) . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً منهم كان يملك ألفاً وخمسمائة بقوة(٥٤) ، وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة . وقد عثر على بقية من نقش يحدد ما يسمح للتلميذ أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطير ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب(٥٥) . وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ والفقراء بشراب الشعير المخمر(٥٦) .

وكانت معيشة الفلاحين معيشة ضنكاً . فأما من كان منهم مزارعاً « حراً » فلم يكن يخضع إلا للوسيط والجابى ، وكان هذان الرجلان يعاملانه على أساس المبادئ الاقتصادية التى ثبتت تقاليدها على مدى الأيام ، فكانوا يأخذون من محصول الأرض « كل ما تتحمله وسائل النقل » . وإلى القارئ رأى أحد الكتبة الظرفاء فى حياة معاصريه من الرجال الذين كانوا يطعمون مصر القديمة :

« هلا استعدْت فى خيالك صورة الزارع حين يجبى منه عُشر حبّه ؟ لقد أتلفتْ الديدان نصف القمح ، وأكلتْ أفراس البحر ما بقى له منه ، وهاجمتْها فى الحقول جماعات كبيرة من الجرذان ، ونزلتْ بها الصراصير ؛ والماشية النهمة ، والطيور الصغيرة تختلس منها الشىء الكثير ، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له فى الأرض ، عدا عليه اللصوص . يضاف إلى هذا أن السيور التى تربط الحديد والمعزقة قد بليت ، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث . وفى هذه اللحظة يخرج الجابى من القارب عند المرسى ليطلب العشور ، ثم يأتى حُرّاس أبواب مخازن (الملك) بعصيّهم ، والزنوج بجريد النخل ، يصيحون : تعالوا الآن ، تعالوا ! فإذا لم يأتهم أحد طرحوا الزارع أرضاً ، وربطوه ، وجرّوه إلى القناة وألقوه فيها

مبتلئين برأسه ، وزوجته مربوطة معه ، ثم يسلك أطفاله فى السلاسل ، ويفرّ جيرانه من حوله لينقذوا حبوبهم[٥٧] » .

تلك بطبيعة الحال قطعة أدبية فيها كثير من المبالغة ، ولكن كاتبها كان فى وسعه أن يضيف إليها أن الفلاح كان معرضاً فى وقت إلى أن يسخّر فى العمل لخدمة الملاك ، يطهر قنوات الرى ، وينشئ الطرق ، ويحرث الأراضى الملكية ، ويجرّ الحجارة الضخمة لإقامة المسلاّت وتشييد الأهرام والهياكل والقصور . وأكبر ظننا أن كثرة العاملين فى الحقول كانت قانعة راضية بفقرها صابرة عليه . وكان كثيرون منهم عبيداً من أسرى الحرب أو المدينين ؛ وكانت الغارات تنظم أحياناً للقبض على العبيد ، وكان يؤتى بالنساء والأطفال من خارج البلاد ليبعن فى البلاد لمن يؤدى فيهن أغلى الأثمان . وفى متحف ليدن نقش بارز قديم يصور موكباً طويلا من الأسرى الأسيويين يسيرون مكتئبين إلى أرض الأسر ، ويراهم الإنسان أحياء على هذا الحجر الناطق وأياديهم موثقة خلف ظهورهم أو رءوسهم ، أو موضوعة فى أصفاد قوية من الخشب ، وعلى وجوههم إمارات الحقد المنبعثة من اليأس .

٢ — الصناعة

المعدنون — الصناع — العمال — المهندسون —
النقل — البريد — التجارة وشئون المال — الكتبة

وازداد الفائض من الثروة شيئاً فشيئاً نتيجة عمل الزراع ، وادخر الطعام لمن يعملون فى التجارة والصناعة . وكانت مصر تستورد المعادن من بلاد العرب والنوبة لقلتها فيها . وكان بُعد مراكز التعدين مما لا يغرى الأهالى باستغلالها لحسابهم الخاص ، ولذلك ظلت صناعة التعدين قروناً كثيرة محتكرة للحكومة[٥٨] ، وكانت مناجم النحاس تغل مقادير قليلة منه[٥٩] ، أما الحديد فكان يستورد من بلاد الحثيين ، وكانت مناجم الذهب منتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفى

بلاد النوبة ، كما كان يؤتى به من خزائن جميع الولايات الخاضعة لسلطان مصر .
ويصف ديودور الصقلى (٥٦ ق . م) المعدنين المصريين وهم يتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب فى الأرض ، والأطفال وهم يحملون المعدن الخام ، والمهارس الحجرية وهى تطحنه ، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه . ولسنا نعرف بالضبط ما فى هذه الفقرة الشهيرة من تزييف مبعثه النعرة القومية العارمة :

« إن ملوك مصر يجمعون السجناء الذين أدانهم القضاء ، وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا فى السجون فى سورة من الغضب . وهؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ، ليقتص منهم عن جرائم ارتكبها المجرمون منهم ، أو ليستخدموا فى الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم . . . وإذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية بأجسامهم ، وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودى الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم . ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء ، أو يخفف العمل عنهم . ولكن هؤلاء كلهم يُلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم ، فيموتوا فى ذل الأسر . ولهذا فإن هؤلاء البائسين المساكين يرون مستقبلهم أتعس من ماضيهم لقسوة العقاب الذى يوقع عليهم ، وهم من أجل ذلك يفضلون الموت على الحياة(٦٠) » .

وعرفت مصر فى عهد الأسرات الأولى كيف تصنع البرنز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعت منه فى أول الأمر أسلحة برنزية كالسيوف ، والخوذ ، والدروع ، ثم صنعت منه بعدئذ أدوات برنزية كالعجلات ، والمراسات ، والرافعات ، والبكرات ، وآلات رفع الأثقال ، والأوتاد ، والمخارط ، واللوالب ، والمثاقب التى تثقب أقسى أحجار الديوريت ، والمناشير التى تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت . وكان العمال المصريون يصنعون الآجر والأسمنت والمصيص ويطلون الفخار بطبقة زجاجية ، ويصنعون الزجاج وينقشو هو والفخار بمختلف

الألوان . وقد برعوا فى حفر الخشب يصنعون منه كل ما يصلح لصنعه من قوارب وعربات وكراسى ، وأسرة ، وتوابيت جميلة تكاد تغرى الأحياء بالموت ، واتخذوا من جلود الأنعام ملابس وكنانات ودروعا ومقاعد ؛ وقد صورت على جدران المقابر كل الفنون المتصلة بدبغ الجلود ، ولا يزال الأساكفة إلى الآن يستخدمون السكاكين المقوسة المصورة على تلك الجدران فى أيدى دابغى الجلود(٦١) . وصنع المصريون من نبات البردى الحبال والحصر والأخفاف والورق . وابتدعوا فن الطلاء بالميناء والورنيش ، واستخدموا الكيمياء فى الصناعة . ومن الصناع من كان يعمل فى نسج القماش من أدق الخيوط المعروفة فى تاريخ النسيج كله . وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من أربعة آلاف عام ، وعلى الرغم من عوادى الأيام فإن « خيوطها قد بلغت من الدقة حداً لا يستطيع الإنسان معه أن يميزها من خيوط الحرير إلا بمجهر . وإن أحسن ما أخرجته المناسج الآلية فى هذه الأيام ليعد خشناً غليظا إذا قيس إلى هذا النسيج الذى كان يصنعه المصريون الأقدمون بأنوالهم اليدوية(٦٢) . وفى هذا يقول بسكل : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية لا نكاد نفوقهم فى شىء(٦٣) » .

وكانت الكثرة الغالبة من الصناع من الأحرار ، وقلتهم من الرقيق . وكان العاملون فى كل صناعة من الصناعات يؤلفون طبقة خاصة كما هى الحال فى الهند اليوم . وأن يطلب إلى الأبناء أن يتخذوا صناعات آبائهم(٦٤)(*) . وقد جاءتهم الحروب بآلاف من الأسرى فكانوا عونا على إنشاء الضياع الواسعة وعلى رقى فن الهندسة . وقد أهدى رمسيس الثالث فى أثناء حكمه ١٣٠٠٠ أسير إلى الهياكل(٦٦) . وكان النظام المألوف للصناع الأحرار أن تؤلف منهم فرق تتبع

(*) ويضيف ديورانت إلى هذا قوله : « إذا اشترك صانع فى الشئون العامة ضرب ضربا موجعاً(٦٥) » .

رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر على عملها جملة ويؤدى هو لأفرادها أجورهم . وفى المتحف البريطانى لوحة طباشيرية سجل فيها أحد رؤساء العمال أسماء ثلاثة وأربعين عاملا ودوّن أمام أسمائهم أيام غيابهم وأسباب هذا الغياب من « مرض » أو « تضحية للإله » أو مجرد « الكسل » . وكان الإضراب كثير الحدوث ، وقد حدث مرة أن تأخر صرف الأجور للعمال زمناً طويلا فحاصروا رئيسهم وأنذروه بقولهم له : « لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، وليست لنا ثياب ، وليس عندنا زيت ولا طعام ؛ فاكتب إلى سيدنا الملك فى هذا الأمر ، واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذى يشرف على شئوننا حتى يعطيانا ما نقتات به[٦٧] » . وتروى إحدى القصص اليونانية المتواترة خبر فتنة صماء اندلع لهيبها فى مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديريات ، وظلت فى أيديهم زمناً طويلا كانت نتيجته أن الزمن ، الذى يجيز كل شىء ، أقرّ امتلاكهم إياها . لكن النقوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن الفتنة[٦٨] . ومن أغرب الأشياء أن حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسى لم تعرف أو لم تسجل إلا عدداً ضئيلا من الثورات .

وكان فن الهندسة عند المصريين أرقى من كل ماعرفه منه اليونان أو الرومان ، أو عرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ؛ ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر ، وحتى فى هذا القول الأخير قد نكون مخطئين . مثال ذلك سنوسريت الثالث شاد(*) سوراً حول بحيرة موريس طوله سبعة وعشرون ميلا ليجمع فيها ماء منخفض الفيوم ، وأصلح بعمله هذا ٢٥٫٠٠٠ فدان كانت من قبل مناقع ، فأصبحت صالحة للزراعة ، هذا إلى أنه اتخذ من هذه البحيرة خزاناً واسعاً لماء الرى[٦٩] . واحتفرت قنوات عظيمة منها مايصل النيل بالبحر الأحمر ، واستخدمت الصناديق الغاطسة للحفر تحت الماء[٧٠] ، ونقلت المسلاّت التى تزن ألف طن من

(*) إذا قلنا شاد الملك فإنا نقصد بطبيعة الحال أنه قد شيد فى عهده .

أماكن قاصية . وإذا جاز لنا أن نصدق ما ينقله لنا هيرودوت ، أو نحكم على أعمال السابقين بما نشاهده من صورها فى النقوش الباردة التى خلفتها الأسرة الثامنة عشرة ، قلنا إن هذه الحجارة الضخمة كان يجرها آلاف من العبيد على عروق من الخشب مطلية بالشحم ، ثم ترفع إلى أماكنها فى البناء على طرق طويلة تبدأ من أماكن بعيدة(٧١) . ولقد كانت الآلات نادرة لأن الجهد العضلى كان رخيصاً ، وليس أدل على هذا الرخص من نقص بارز صور فيه ثمانمائة من المجدفين يدفعون سبعة وعشرين قارباً تجر وراءها صندلا للنقل يحمل مسلتين(٧٢) . هذا هو العصر الذهبى الذى يريد من ينادون بتحطيم الآلات أن يعودوا إليه . وكانت سفن يبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها خمسين قدماً تمخر عباب النيل والبحر الأحمر ، ثم انتقلت آخر الأمر إلى البحر المتوسط ، أما فى البر فقد كانت البضائع ينقلها الحاملون ، ثم استخدمت فى نقلها الحمير ثم الخيل ، وأكبر الظن أن الهكسوس هم الذين جاءوا بالخيل إلى مصر . ولم يظهر الجمل فى مصر إلا فى عهد البطالمة(٧٣) ، وكان الفقراء من أهل البلاد يتنقلون مشياً على الأقدام أو يستخدمون قواربهم البسيطة ، أما الأغنياء فكانوا يركبون رجازات(*) يحملها العبيد ثم صاروا فيما بعد يركبون عربات غير أنيقة الصنع يقع ثقلها كله أمام محور العجل(٧٤) .

وكان لدى المصريين بريد منتظم ؛ فقد جاء فى بردية قديمة : « أكتب إلى مع حامل الرسائل »(٧٥) . إلا أن وسائل الاتصال لم تكن مع ذلك ميسرة ، فقد كانت الطرق قليلة غير معبدة ما عدا الطريق الحربى الممتد من نهر الفرات ماراً بغزة(٧٦) . وكان التواء النيل — وهو أهم وسائل الانتقال وقتئذ — مما ضاعف البعد بين المدن المختلفة . وكانت التجارة الداخلية بدائية نسبياً ، يتم معظمها بطريق المقايضة فى أسواق القرى ، ونمت التجارة الخارجية نمواً بطيئاً ،

(*) الرجازة الهودج الصغير . (المترجم)

وعاقها ما كان يفرض عليها من قيود شديدة أشبه ما تكون بأحدث الحواجز الجمركية المفروضة على التجارة الخارجية فى هذه الأيام . ذلك أن ممالك الشرق الأدنى كانت قوية الإيمان بمبدأ « الحماية التجارية » لأن الضرائب الجمركية كانت مورداً للخزائن الملكية . على أن مصر مع هذا قد أثرت بما كانت تستورده من المواد الغفل وتصدره من المصنوعات . وكانت أسواق مصر غاصة بالتجار السوريين والكريتيين والقبرصيين ، كما كانت السفن الفينيقية تجرى فى النيل من مصبه فى الشمال إلى أرصفة طيبة الكثيرة الحركة فى الجنوب(٧٧) .

ولم تكن النقود قد بدأت تستعمل فى البيع والشراء ، ولذلك كان كل شىء ، حتى مرتبات أكبر الموظفين ، يؤدى سلعاً ، حبّاً أو خبزاً ، أو خميرة ، أو بيرة أو نحوها . وكانت الضرائب تجبى عيناً ، ولم تكن خزائن الملك غاصة بالنقد بل كانت مخازن تكدس فيها آلاف السلع من منتجات الحقول وبضائع الحوانيت . ولما أخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن ما يبتاعونه من البضائع حلقات أو سبائك من الذهب تقدر قيمتها بالوزن فى كل عملية تجارية ، ولم تضرب نقود ذات قيمة محددة تضمنها الدولة لتسهيل هذه العمليات . على أن نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ، وكثيراً ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحل محل المقايضة أو الدفع فوراً ؛ وجد الكتبة فى كل مكان يسجلون الأعمال بوثائق المبادلة القانونية ، وأعمال المحاسبة والأعمال المالية .

وما من أحد زار متحف اللوفر إلا شاهد تمثال الكاتب المصرى الجالس مطوى الساقين ، وجسمه كله يكاد يكون عارياً ، ومن خلف أذنه قلم احتياطى غير القلم الذى يمسكه بيده ، وهو يدون مايقوم به ويسجل مايؤدى من العمل ، وما يسلم من البضائع ، وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . يحصى الماشية الذاهبة إلى المذبح . والحبوب وهى تكال للبيع ، ويكتب العقود والوصايا ، ويقدر ما يجب على سيده أن يؤديه من ضريبة الدخل . والحق أنه لا جديد تحت الشمس ؛

وهو رجل حريص مغنى بعمله نجد فيه نشيط نشاطاً آلياً ، أوتى قسطاً من الذكاء ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذى يمنعه أن يكون خطراً ، حياته رتيبة مملة ، ولكنه يواسى نفسه بكتابة المقالات عما يكتنف حياة العامل اليدوى من صعاب ،

شكل (١٣) تمثال الكاتب
المحفوظ فى متحف اللوفر

وما يحيط بأولئك الذين طعامهم الورق ودماؤهم المداد من عزة وكرامة لا تقلان عن عزة الأمراء وكرامتهم .

٣ — نظام الحكم

الموظفون — الشرائع — الوزير — الملك

وكان الملك وأعيان الأقاليم يستعينون بهؤلاء الكتبة للمحافظة على النظام وسلطان القانون فى الدولة . وتصور بعض الألواح القديمة الكتبة يقومون بعملية الإحصاء ويحسبون ما دخل الخزانة من ضريبة الدخل . ويستعينون بالمقاييس النيلية التى تسجل ارتفاع ماء النهر على معرفة ماسيكون عليه موسم الحصاد ، فيقدّرون منه إيراد الحكومة فى العام المقبل ، ويخصصون لكل مصلحة من المصالح ما سيكون لها من نصيب فى هذا الإيراد ، وكان عليهم فوق ذلك أن يشرفوا على شئون الصناعة والتجارة . ولقد أفلحوا من بداية التاريخ تقريبا فى وضع نظام اقتصادى تشرف الدولة عليه(٧٨) .

وكانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى الرقى ، كما كانت قوانين الملكية والميراث من أيام الأسرة الخامسة قوانين مفصلة دقيقة(٧٩) . وكان الناس جميعاً متساوين مساواة تامة أمام القانون كما هم متساوون أمامه فى هذه الأيام — أى متى كان الطرفان المتنازعان متساويين فى الموارد وفى النفوذ . وأقدم وثيقة قانونية فى العالم كله عريضة دعوى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى تعرض على المحكمة قضية من قضايا الميراث المعقدة . وكان القضاة يطلبون أن يترافع فى القضايا ، وأن يرد على حجج المترافعين ، وأن يناقش أصحابها ويحاجون ، على ألا يكون ذلك كله خطباً تلقى بل مذكرات مكتوبة تقدم للقضاة — وهو نظام لا يقل فى شأنه عن نظام التقاضى المعقد فى هذه الأيام . وكان الحانث فى يمينه يعاقب بالإعدام(٨٠) . وكان للمصريين محاكم منظمة مختلفة الدرجات تبدأ من

مجالس الحكم المحلية فى المقاطعات وتنتهى بالمحاكم العليا فى منف أو طيبة أو عين شمس(٨١) . وكانوا يلجئون إلى التعذيب فى بعض الأحيان لحمل المجرم على الاعتراف بالحق(٨٢) . وكان الضرب بالعصا من أنواع العقاب الشائعة ، وكانوا يلجئون فى بعض الأحيان إلى عقاب المذنب بجدع أنفه أو صلم أذنه أو قطع يده أو لسانه(٨٣) ، أو نفيه إلى أقاليم المناجم ، أو إعدامه بالشنق أو بالمخزق ، أو بقطع رأسه أو بإحراقه مصلوباً ، وكان أشد ضروب العقاب هو تحنيط المعاقب حياً ، أو إحاطته بطبقة من النطرون القارض تأكل جسمه آكلا بطيئاً(٨٤) ؛ وكان المجرمون من علية القوم يجتنبون عار الإعدام علناً بأن يُسمح لهم بقتل أنفسهم بأيديهم كما تفعل طبقة الساموراى فى اليابان(٨٥) . ولم يُعثر على شواهد يستدل منها على وجود نظام للشرطة ، وحتى الجيش العامل — وقد كان على الدوام صغير الحجم لأن فى عزلة مصر وموقعها بين الصحراء والبحر ما يرد عنها المغيرين — قلما كان يستخدم لحفظ النظام فى داخل البلاد .

ذلك أن الحياة والملكية والاطمئنان إلى سلطان القانون والحكومة تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبة الملك . وكانت المدارس والهياكل دعامة هذه الهيبة وليس فى العالم كله أمة غير مصر — إذا استثنينا الأمة الصينية — جرؤت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن فى البلاد .

لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظاماً وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى فى التاريخ . وكان الوزير على رأس الإدارة كلها ، يشغل منصب رئيس الوزراء ، وقاضى القضاة ، ورئيس بيت المال ، وكان الملجأ الأخير للمتقاضين لا يعلو عليه فى هذا إلا الملك نفسه . وترى الوزير فى نقش على أحد القبور يخرج من بيته فى الصباح الباكر « لينستمع إلى مظالم الفقراء ، ويصغى » كما هو وارد فى النقش « إلى ما يقول الناس فى مطالبهم ، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم »(٨٦) . وقد وصلت إلينا بردية مدهشة من عهد الإمبراطورية

تحتوى كما تقول هى نفسها على صورة الخطاب الذى كان يلقيه الملك حين يعيّن الوزير فى منصبه (ولربما كان هذا الخطاب قطعة أدبية من وضع كاتبها نفسه) :

« اجعل عينك على مكتب الوزير ، وراقب كل ما يحدث فيه . واعلم أنه هو الدعامة التى تستند إليها جميع البلاد . . . ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرّة . واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصى للأمراء والمستشارين ، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيداً . انظر ؛ إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وأن يتبع فى كل شىء العرف السائد فى بلده ، وأن (يعطى كل إنسان) حقه . . . واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله . . . فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن (بيته) . انظر ؛ إن الأمير الذى يفعل هذا سيبقى هنا فى هذا المكان . وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل فى حكمه . ارع القواعد المفروضة عليك »(٨٧).

وكان الملك نفسه هو المحكمة العليا ، يستطاع رفع كل قضية إليه فى أحوال معينة ، إذا لم يعبأ المدعى بما يتطلبه رفعها إليه من النفقات . وتمثل بعض النقوش القديمة « البيت الأعظم » الذى يجلس فيه للحكم والذى تتجمع فيه دواوين الحكومة . وقد اشتقت من اسم هذا البيت الأعظم للذى كان المصريون يطلقون عليه لفظ « پيرو » والذى ترجمه اليهود إلى فرعوه ، اشتق من اسمه هذا لقب الملك نفسه . وفى هذا البيت كان الملك يضطلع بواجبه الشاق الرتيب من الأعمال التنفيذية ، التى كانت فى بعض الأحيان لا تقلّ فى كثرتها وفيما تتطلبه من جهود عن أعمال شـــندرا جويتا(*) أو لويس الرابع عشر أو نابليون(٨٨) . وكان الملك إذا سافر قابله أمراء الإقطاع عند حدود إقطاعاتهم ، وساورا فى ركابه ، وأولموا له

(*) رأس أسرة الموريا التى حكمت الهنـــد والأفغان بعد الإسكندر ، وسيرد تاريخه مفصلا عند الكلام على الهند . (المترجم)

الولائم ، وقدموا له من الهدايا ما يتناسب مع ما ينتظرونه منه . وقد جاء فى أحد النقوش أن نبيلاً من النبلاء أهدى أمنحوتب الثانى « عربات من الفضة والذهب وتماثيل من العاج والأبنوس ، وجواهر ، وأسلحة ، وتحفاً فنية » و٦٨٠ درعاً ، و١٤٠ خنجراً من البرنز ومزهريات كثيرة من المعادن الثمينة(٨٩) . وجازاه الملك على هذا بأن أخذ ابنه معه ليعيش فى قصره — وهذه طريقة ماكرة لاتخاذه رهينة يضمن بها ولاء هذا الشريف . وكان يتألف من أكبر رجال البلاط سناً مجلس شيوخ يسمى سارو ، أى مجلس العظماء ، مهمته أن يكون مجلساً استشارياً للملك(٩٠) . على أن هذه الاستشارة لم تكن فى الواقع ضرورية لأن الملك ومن ورائه الكهنة كان يدعى أنه من سلالة الآلهة وأن الآلهة نفسها قد وهبته السلطة والحكمة . وكان اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته . ومن أجل هذا كانت تخلع عليه إذا خوطب صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحياناً . من ذلك ما جاء فى قصة سنوحى إذ يحييه مواطن صالح بقوله : « أيها الملك الطويل العمر ، أرجو أن تهب الواحدة الذهبية (أى الإلهة حتحور) الحياة لأنفك »(٩١) .

وكان يقف على خدمة الملك — كما يليق بشخص هذه عظمته — عدد كبير من مختلف الأعوان ، منهم القوّاد ، وغاسلو الملابس ، وقصّارها ، وحراس خزائنها ، وغيرهم من ذوى المراتب الرفيعة « وكان عشرون من الموظفين يشتركون فى تزيينه ، منهم حلاّقون لا يُسمح لهم إلا بقص شعره وحلْق لحيته ، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه ، ومدرمون يقصون أظافره ويدرمونها ، ومعطّرون يعطّرون جسمه ويكحلون جفون عينيه ، ويحمرون خدّيه وشفتيه بالصبغة الحمراء(٩٢) . وجاء فى نقش على أحد القبور أن صاحب القبر كان « المشرف على صندوق دهان الشعر والوجه ، المسيطر على الدهان ، حامل خُفّى الملك ، الذى يعنى بخفّيه العناية التى يرضاها القانون »(٩٣). وكان الانحلال والضعف عاقبة هذا التنعم المفرط ، وكان الملك يلجأ فى بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه وإزالة ما يعتريه من ملل

وسآمة بحشد طائفة من الفتيات فى قاربه الملكى وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة . وكان الترف الذى انغمس فيه أمنحوتب الثالث هو الذى مهد السبيل لثورة إخناتون .

٤ — القانون الأخلاقى

مضاجعة الملك لأقاربه ـ الحريم ـ الزواج ـ مركز المرأة ـ سلطان الأم فى مصر — القوانين الأخلاقية الخاصة بعلاقة الرجال والنساء

لقد كانت حكومة مصر شبيهة بحكومة نابليون حتى فى مضاجعة الملك لأقاربه ، وكثيراً ما كان الملك يتزوج أخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوج ابنته ، ليحتفظ بالدم الملكى نقياً خالصا من الشوائب . وليس من اليسير أن نحكم هل أضعفت هذه العادة قوة نسل الملوك أو لم تضعفه ؟ لكنا لا نشك فى أن مصر لم تكن تعتقد هذا بعد أن ظلت تسير عليه عدة آلاف من السنين ، وانتقلت عادة الزواج بالأخوات من الملوك إلى عامة الشعب حتى لقد وجد فى القرن الثانى بعد الميلاد أن ثلثى سكان أرسينوئى يسيرون على هذه السُّنّة(٩٤) . وكان معنى لفظى أخ وأخت فى الشعر المصرى القديم كمعنى حبيب وحبيبة فى أيامنا هذه(٩٥) . وكان للملك فضلا عن أخواته عدد كبير من النساء من أسيرات الحروب وبعضهن من بنات الأعيان أو ممن أهداهن إليه الأقيال الأجانب . من ذلك أن أحد أمراء بلاد « نهرينا » أهدى إلى أمنحوتب الثالث ابنته الكبرى وثلثمائة من صفوة الفتيات(٩٦) . وقد حذا بعض النبلاء حذو الملوك فى هـــذا الإسراف وإن لم يبلغوا فيه مبلغهم ، فقد كان عليهم أن يوفقوا فى هـــذه الناحية بين مبادئهم الخلقية ومواردهم المالية .

أما عامة الشعب فكان شأنهم شأن ذوى الدخل المتوسط فى سائر الأمم ، يقنعون بزوجة واحدة . ويلوح أن الحياة العائلية كانت منظمة ، ذات مستوى

رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطان الأبوين ، ولا تقلّ فى هذا عنها فى أرقى الحضارات فى هذه الأيام . وكان الطلاق نادراً إلا فى عهد الاضمحلال . وكان فى مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعوضها بشىء إذا زنَت ، أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الأسرة .

كذلك كان الأزواج يبذلون قصارى جهدهم فى الإخلاص لزوجاتهم — على قدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم فى هذه الأمور الخفية . ولم يكن مستواهم فى هذا أقل منه فى المدنيات اللاحقة ، وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها عند كثير من الأمم فى هذه الأيام . وفى ذلك يقول ماكس ملر : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثل ما رفعها سكان وادى النيل »(٩٧) . فالنقوش تصور النساء يأكلن ويشربن بين الناس ، ويقضين ما يحتجنه من المهام فى الشوارع من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن ، ويمارسن الأعمال الصناعية والتجارية بكامل حريتهن . ولشد ما دهش الرحالة اليونان — وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السليطات — من هذه الحرية ، وأخذوا يسخرون من الأزواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم . ويقول ديودور الصقلى — ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين — إن طاعة الزوج لزوجته فى وادى النيل كانت من الشروط التى تنص عليها عقود الزواج(٩٨) . وهو شرط لا ضرورة للنص عليه فى أمريكا ! وكان النساء يمتلكن ويورّثن ، كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ ، وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيدة نب — سنت بأراضيها لأبنائها(٩٩) . وقد ارتقت حتشبسوت وكليوبطرة عرش مصر وحكمتا وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون .

على أننا نجد أحياناً نغمة ساخرة فى الآداب المصرية . من ذلك ما كتبه رجل من رجال الأخلاق الأقدمين يحذر قراءه منهن .

احذر المرأة التى تأتيك من الخارج ، والتى لا يعرفها أهل مدينتها . فلا ترفع بصرك إليها إذا أتت ، ولا تعرفها ، فهى كالدُّردور فى الماء العميق ، لا تستطيع أن تسبر غورها . وإن المرأة التى غاب زوجها لتكتب إليك فى كل يوم ، وإذا لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك شباكها . وما أشنعها من جريمة إذا أصغى إليها الإنسان(١٠٠) ! » .

أما النغمة المصرية الخالصة فهى التى نسمعها فى نصيحة بتاح حوتب لابنه والتى يقول فيها :

إذا كنت ناجحاً ، وأثثت بيتك ، وكنت تحب زوجة قلبك ، مملأ بطنها واكس ظهرها . . . وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذى تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه . . . وإن عارضتها كان فى ذلك خرابك(١٠١) .

وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول :

ينبغى لك ألا تنسى أمك . . . فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها وكنت فيها حملا ثقيلا ؛ وبعد أن أتممتَ شهورك ولدتك . ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت(١٠٢) .

ويرجح أن هذه المكانة السامية التى كانت للمرأة إنما نشأت من أن المجتمع المصرى كان أميل إلى تغليب سلطان الزوجة على سلطان الزوج بعض الشىء . وشاهد ذلك أن المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة فى بيتها وكفى ، بل إن الأملاك الزراعية كلها كانت تنتقل إلى الإناث ، وفى ذلك يقول بترى : « لقد كان الزوج حتى فى العهود المتأخرة ينزل لزوجته فى عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة(١٠٣) » ولم يكن سبب زواج الأخ بأخته أن وجودها معه قد ملأ بحبها قلبه ، بل كان سببه أن الرجال كانوا يبغون أن يستمتعوا بميراث الأسرة الذى كان ينحدر

من الأم إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثروة(١٠٤) . على أن سلطان المرأة قد نقص قليلا على مر الزمن ، ولعل سبب هذا النقص هو أثر التقاليد الأبوية التى أدخلها الهكسوس ، وأثر انتقال البلاد من عزلتها الزراعية ومن حال السلم إلى طور الاستعمار والحرب . وزاد نفوذ اليونان فى أيام البطالمة زيادة أصبحت معها حرية الطلاق ، وهى التى كانت تطالب بها المرأة فى الأزمنة السابقة ، حقاً خالصاً للزوج لا ينازعه فيه منازع . بيد أنه حتى فى ذلك الوقت لم يقبل هذا التطور إلا الطبقات العليا من أهل البلاد ، أما عامة الشعب فقد ظلت مستمسكة بالتقاليد القديمة(١٠٥) . ولعل سيطرة المرأة على شئونها الخاصة هى التى جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدث . ويرى ديودور الصقلى أن من خواص المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول إن القانون كان يقضى على الأب الذى يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة(١٠٦) . وكانت الأسر كبيرة ، والأطفال تغص بهم الأكواخ والقصور على السواء ، وكان الأثرياء منهم يلقون صعاباً جمة فى إحصاء نسلهم(١٠٧)

وحتى فى مسائل الخطبة كانت المرأة هى البادئة . وشاهد ذلك أن ما وصل إلينا من قصائد الغزل ورسائل الحب أغلبه موجه من المرأة إلى الرجل ، فهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء ، وهى التى تتقدم بالخطبة إلى الرجل مباشرة ، وهى التى تعرض عليه الزواج صراحة(١٠٨) . وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « أى صديقى الجميل ؛ إنى أرغب فى أن أكون ، بوصفى زوجتك ، صاحبة كل أملاكك(١٠٩) » . ومن ثم نرى أن الحياء — وهو أمر يختلف عن الوفاء — لم يكن من صفات المصريين البارزة ، فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بصراحة لم نعهدها فى التقاليد الأخلاقية المتأخرة عن عهدهم ، وكانوا يزينون هياكلهم بصور ونقوش قليلة البروز تظهر فيها أجزاء الجسم كلها واضحة أتم وضوح ، وكانوا يقدمون لموتاهم من الأدب الفاحش ما يسليهم فى قبورهم(١١٠) . لقد كان

الدم الذي يجري فى عروق سكان وادي النيل دماً حاراً ، ومن أجل ذلك كانت البنات يصلحن للزواج فى سن العاشرة ، وكان اتصال الفتيان والفتيات قبل الزواج حراً ميسراً ؛ ويقال إن إحدى السرارى فى أيام البطالمة استطاعت أن تدخر من الأموال ما بنت به هرماً . وحتى اللواط لم يكن معدوماً فى مصر(١١١) . وكانت الفتيات الراقصات الشبيهات بأمثالهن فى اليابان يُقبلن فى أرقى مجتمعات الرجال ليقدمن للمجتمعين ضروب التسلية والمتعة الجسمية ، وكن يرتدين ملابس شفافة أو يكتفين أحياناً بالتزين بالخلاخل والأساور والأقراط(١١٢) ولدينا شواهد على الفسوق الدينى فى نطاق ضيق . وكان من العادات المتبعة التى ظلت باقية إلى عهد الفتح الرومانى أن تختار أجمل بنات الأسر الشريفة فى طيبة وتنذر لأمون . فإذا أضحت لكبر سنها عاجزة عن رضاء الإله أخرجت من خدمته بمظاهر التشريف والتعظيم ، وتزوجت ولقيت الترحيب والإجلال فى أرقى الأوساط(١١٣) . لقد كانت لهذه الحضارة آراؤها ونزواتها التى تختلف عن آرائنا نحن ونزواتنا .

٥ — العادات

الأخلاق الشخصية — الألعاب — المظهر الخارجى — الأصباغ والأدهان — الملابس — الحلى

إذا شئنا أن نستعيد فى مخيلتنا صورة من الأخلاق الشخصية للمصريين الأقدمين ، وجدنا أن ليس من السهل أن نفرق بين هذه الأخلاق كما نقرأ عنها فى آدابهم وبين ما كان يحدث فى الحياة الواقعية . فما أكثر ما نقرأ عنه من العواطف النبيلة فى كتاباتهم . من ذلك ما كتبه أحد الشعراء ينصح مواطنيه :

أطعم الخبز لمن لا حقل له .
واترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبد الدهر(١١٤) .

وكثيراً ما يسدى بعض الكبار إلى أبنائهم نصائح حميدة ، ففى المتحف

البريطانى بردية تعرف باسم : « حكمة أمنحوتب » (حوالى ٩٥٠ ق م) وهى تُعِد أحد الطلاب لتولى منصب عام بطائفة من النواهى لا يبعد قط أن كان لها أثر فى واضع « أمثال سليمان » أو واضعيها :

لا تطمع فى ذراع من الأرض ،
ولا تعتد على حدود أرملة . . . ،
واحرث الحقل حتى تجد حاجاتك ،
وخذ خبزك من بيدرك ،
وإن قدحاً من الحب يعطيكه الله
لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان . . . ،
وإن الفقر فى يد الله
لخير من الغنى فى المخازن ؛
وإن الرغيف والقلب مبتهج
لخير من الغنى مع الشقاء . . . (١١٥) » .

على أن ما تحويه هذه الآداب من دلائل التقوى والصلاح لم يحل دون المطامع البشرية . ولم يكن المصريون الأقدمون إلا خلقاً لهم ما لسائر الخلق من مطامح ، لقد وصف أفلاطون الأثينيين بأنهم محبون للمعرفة ، والمصريين بأنهم محبون للثروة . ولعل فى هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته إليها النعرة الوطنية ، ولكننا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن المصريين هم أمريكيو العالم القديم . فهم قوم مولعون بضخامة الحجم ، يحبون المبانى الفخمة الكبيرة وهم مجدون نشطون جماعون للثروة ، عمليون حتى فى خرافاتهم الكثيرة عن الدار الآخرة . وهم أشد الأمم الماضية استمساكاً بالقديم ، لم تتبدل حالهم رغم ماطرأ عليهم من أحداث ، وظل فنانوهم يقلدون ما جرى به العرف القديم تقليداً كأنه أمر من أوامر الدين ، إذا نظرنا إلى آثارهم بدا لنا أنهم قوم واقعيون لا يعنون بالسخافات التى لا صلة لها

بالأمور الدينية . ولا يقدرون الحياة تقديراً أساسه العاطفـــة ، يقتلون وضميرهم مستريح لأنهم لم يفعلوا ما يخالف الطبيعة البشرية . ولقد كان الجندى المصرى يقطع يمين العدو المقتول أو عورته ويأتى بها إلى الكاتب المختص ليسجل له عمله هذا فى صحيفة حسناته(١١٦) . وفقد الناس فى عهد الأسر المتأخرة عاداتهم وصفاتهم الحربية لطول ما أخلدوا إلى الأمن فى الداخل وإلى السلام فيما عدا الحروب البعيدة عن ديارهم ؛ وكانت نتيجة هذا أن فئة قليلة من جنود الرومان استطاعت أن تسيطر على مصر كلها(١١٧) .

وإذ كان أكثر ما نعرفه عن المصريين مستمدا من الآثار التى كشفت مقابرهم أو النقوش التى على جدران هياكلهم ، فقد خدعتنا هذه المصادفة المحضة فبالغنا فيما كانوا يتصفون به من جد ووقار. والحق أن بعض ما خلفوه من تماثيل ونقوش ، ومن قصص هزلية عن آلهتهم(١١٨) : ليشهد بأنهم كانوا على جانب غير قليل من المرح والفكاهة ، وقد كان لهم كثير من الألعاب والمهاريات العامة والخاصة « كالداما » والنرد(١١٩) ، وكانوا يقدمون اللعب والدمى لأطفالهم كالبلى والكرة النطاطة والخذروف ، وكانوا يعقدون مباريات فى المصارعة والملاكمة وصراع الثيران(١٢٠) ، وكان خدمهم يمسحون لهم فى أعيادهم ونزهتهم أجسامهم بالزيوت . وكانوا يضعون على رءوسهم أكاليل الزهر ويسقون الخمور وتقدم لهم الهدايا .

ونستطيع استناداً إلى ما لدينا من رسومهم الملونة وتماثيلهم أن نصورهم خلقاً أقوياء الأجسام ، مفتولى العضلات ، عريضى المناكب ، مستلقى الخصور ، ممتلئى الشفاه ، منبسطى الأقدام لاعتيادهم الحفاء . وهذه الرسوم والتماثيل تمثل الطبقات العليا نحيفة القوام ، طويلة فى هيبة ، ذات وجوه بيضاء وجباه متحدرة منتظمة ، وأنوف طويلة مصفحة ، وعيون نجل ، وكانت بشرتهم بيضاء وقت مولدهم (تشهد بأنهم من أصـــل أسيوى لا إفريقى) ، ولكنها سرعان ما تلفحها شمس مصر فتسمر(١٢١) . وقد جرى

العرف بين الفنانين المصريين على أن يرسموا الرجال حمراً والنساء صفراوات ؛ ولربما كان هذان اللونان مجرد طرازين من الزينة للرجال والنساء . هذا شأن الطبقات العليا . أما الرجل من عامة الشعب فكان يمثل بالصورة التى نراها فى تمثال شيخ البلد ، قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، كاسى القصب ، وذلك لطول كده وطعامه غير المتزن . وكانت ملامحه خشنة ، وكان أفطس الأنف أخشمه ، ذكياً ولكنه خشن الطباع . ولربما كان الشعب وحكامه من سلالتين مختلفتين ، شأنهم فى هذا شأن كثير من الشعوب : فلعل الحكام كانوا من أصل أسيوى وعامة الشعب من أصل إفريقى . وكان شعرهم أسود ، أحجن فى بعض الأحيان ، وقلما كان قَطَطاً . وكان النساء يقصصن شعورهن كأحسن ما يقصصنه فى هذه الأيام ؛ وكان الرجال يحلقون لحاهم ويخفون شواربهم ويزينون أنفسهم بشعور مستعارة فخمة . وكثيراً ما كانوا يقصون شعر رأسهم ليسهل عليهم لبس هذه الشعور المستعارة . وحتى زوجة الملك نفسها كانت تقص شعرها كله ليسهل عليها لبس التاج والشعر الملكى المستعار (كما ترى هذا فى صورة تى أم إخناتون) . وكان من المراسم التى لا يستطيع الملك الخروج عليها أن يلبس أكبر ضفيرة مستعارة(١٢٢) .

وكانوا يستعينون بفنون التجميل على إصلاح عيوب أجسامهم كل منهم حسب موارده . فكانوا يحمرون أوجههم وشفاههم ويلونون أظافرهم ، ويدهنون أعضاء أجسامهم بالزيت ، وحتى تماثيل المصريات كانت تكحل عيونها . وكان ذوو اليسار منهم يضعون فى قبور موتاهم سبعة أنواع من الأدهان ونوعين من الصبغة الحمراء . وقد وجدت بين آثارهم كميات كبيرة من أدوات الزينة ، والمرايا ، والمواسى ، وأدوات تجعيد الشعر ، ودبابيسه ، والأمشاط ، وصناديق الأدهان ، والصحاف والملاعق — مصنوعة من الخشب ، أو العاج ، أو المرمر ، أو البرنز ، ذات أشكال جميلة تتفق والأغراض التى تستخدم فيها . ولا تزال بعض أصباغ للعيون باقية فى أنابيبها إلى يومنا هذا ، وليس الكحل الذى تستعمله النساء فى هذه الأيام لتزيين حواجبهن ووجوههن إلا صورة أخرى من الزيت الذى كان المصريون

يستخدمونه فى غابر الأيام ؛ وقد وصلت إلينا هذه العادة عن طريق العرب ، واشتق من اسمه العربى « الكحل » لفظ « الكحول » الذى نستخدمه الآن ؛ وكانت العطور على اختلاف أنواعها تستخدم لتعطير الجسم والثياب ، كما كانت المنازل تبخر بالبخور والمر(١٢٣) .

وسارت ملابسهم فى جميع مراحل التطور من عرى البدائيين إلى أفخم ملابس عصر الإمبراطورية ؛ ففى أول الأمر كان الأطفال ذكوراً وأناساً يظلون حتى الثالثة عشرة من عمرهم عراة الأجسام إلا من الأقراط والقلائد . غير أن البنات كن يظهرن شيئاً من الخفر الخليق بهن فيتمنطقن بمنطقة من الخرز فى أوساطهن(١٢٤) . وكان الخدم والزراع يقتصرون على قطعة من القماش تستر عوراتهم . فلما كان عهد الدولة القديمة كان الأحرار من الرجال والنساء يسيرون وأجسامهم عارية من فوق السرة ، مغطى ما تحتها إلى الركبة بإزار قصير ضيق من الكتان الأبيض(١٢٥) ؛ ولما كان الحياء وليد العادة لا الطبيعة فإن هذه الثياب البسيطة كانت ترضى ضمير هؤلاء القوم ، كما كان الإنجليز فى العصر الفكتورى يرتضون النقبة (الجونيلا) والخصار(*) أو ثياب السهرة التى يلبسها الرجال من الأمريكيين فى هذه الأيام . وما أصدق القول المأثور : « ليست فضائلنا إلا معانى تخلعها الأيام على الأفعال والعادات » ؛ وحتى القساوسة أنفسهم فى عصر الأسر المصرية الأولى كانوا يكتفون بستر عوراتهم كما تشاهد ذلك فى تمثال رنوفر(١٢٦) . فلما زادت الثروة كثرت الملابس ، فأضفت الدولة الوسطى إزاراً ثانياً فوق الإزار الأول وأكبر منه ، وأضافت الدولة الحديثة غطاء للصدر ودثاراً للكتفين كان يلبس من حين إلى حين . وكان سائقو المركبات وسائسو الخيل يرتدون حللا فخمة كاملة ويعدون فى الشوارع بحللهم هذه ليفسحوا الطريق لمركبات أسيادهم . ونبذت النساء المئزر الضيق فى عصور الرخاء المتأخرة واستبدلن به ثوباً فضفاضاً

(*) مشد الخصر (الكورسيه) .

ينزل من الكتفين ويربط بمشبك تحت الثدى الأيمن . وظهرت الأثواب المطرزة ذات الأهداب المختلفة التى لا يحصى عديدها ، وتسربت الأنماط والطراز الحديثة إلى البيوت تسرب الأفاعى لتفسد على أصحابها جنة العرى البدائية(١٢٧) .

وكان الرجال والنساء سواء فى الشغف بالحلى والزينة ، فكانوا يحلون بالجواهر أعناقهم وصدورهم ، وأذرعهم ، ومعاصمهم ، وأرساغهم ، ولما عم الرخاء البلاد وزاد ثراء أهلها بما جاءها من خراج أملاكها فى آسية ، ومن مكاسب تجارة بلاد البحر المتوسط ، أصبح التحلى بالجواهر مطلباً يهواه جميع المصريين ، ولم يعد ميزة للطبقات الموسرة ؛ فكان لكل كاتب وتاجر خاتمه المصنوع من الفضة أو الذهب ، ولكل رجل خاتم فى إصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . وكانت هذه القلائد من أنماط لا حصر لها كما يدل على ذلك ما تراه منها اليوم فى المتاحف ، فمنها ما لا يزيد طوله على بوصتين أو ثلاث بوصات ، ومنها ما يبلغ طوله خمس أقدام ؛ ومنها ما هو سميك ثقيل ، ومنها ما يضارع « أجمل مخرمات مدينة البندقية خفة ولينا(١٢٨) » . وأضحت الأقراط فى الأسرة الثامنة عشرة حلية لا غنى عنها . فكان لا بد لكل شخص أن تخرق أذنه لتحلى بقرط ، ولم تختص بالأقراط النساء وللبنات ، بل كان يتحلى بها أيضاً الأولاد والرجال(١٢٩) . وكان الرجال والنساء على السواء يزينون أجسامهم بالأساور والخواتم والأنواط والقلائد من الخرز والحجارة الثمينة . وملاك القول أن نساء مصر القديمة لن يتعلمن منا شيئاً عن أدهان الشعر والوجه والجواهر لو أنهن بعثن بيننا فى هذه الأيام .

٦ — القراءة والكتابة والتعليم

التعليم — مدارس الحكومة — الورق والحبر — مراحل
تطور الكتابة — أشكال الكتابة المصرية

كان الكهنة يلقنون أبناء الأسر الغنية مبادئ العلوم فى مدارس ملحقة بالهياكل كما هى الحال فى أبرشيات طوائف الكاثوليك الرمان فى هذه الأيام(١٣٠)

ويطلق أحد الكهنة — وقد كان يشغل المنصب الذى يصح أن نسميه فى هذه الأيام وزير المعارف — على نفسه اسم « رئيس الاصطبل الملكى للتعليم[١٣١] » ؛ وقد عثر فى خرائب إحدى المدارس التى يبدو أنها كانت جزءاً من بناء الرمسيوم على عدد كبير من الحجار لا تزال دروس المعلم القديم ظاهرة عليها . وكان عمل المدرس فى تلك الأيام هو تخريج الكتبة للقيام بأعمال الدولة ، وكان المدرسون يستحثون تلاميذهم على الإقبال على التعليم بتدبيج المقالات البليغة يشرحون فيها مزاياه . من ذلك ما جاء فى إحدى البرديات : « أفرغ قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك ، فلا شىء فى العالم يعدل العلم فى قيمته » . وتقول بردية أخرى : « ليس ثمة وظيفـــة إلا لها من يسيطر عليها . لكن العالم وحده هو الذى يحكم نفسه » . وكتب أحد المولعين بمطالعة الكتب يقول : « إن من سوء الحظ أن يكون الإنسان جندياً ، وإن حرث الأرض لعمل ممل ، أما السعادة فلا تكون إلا فى توجيه القلب إلى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل[١٣٢] » :

وقد وصلت إلينا كراسات من عهد الدولة الحديثة وفيها إصلاح المدرسين لأخطاء التلاميذ يزين هوامشها ، وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة حدا يجد فيه تلميذ اليوم كثيراً من السلوى[١٣٣] . وكان الإملاء ونقل النصوص أهم طرق التعليم ، وكانت هذه الدروس تكتب على الشقف أو على رقائق من حجر الجير[١٣٤]. وكان أكثر ما يعلم هو الموضوعات التجارية ، وذلك لأن المصريين كانوا أول الأقوام النفعيين ، وأعظمهم استمساكاً بالنظرية النفعية ، وكانت الفضيلة أهم الموضوعات التى يكتب فيها المعلمون وكانت مشكلة النظام أهم المشاكل التعليمية فى تلك الأيام ، كما هى أهم مشاكله فى الوقت الحاضر . وقد جاء فى إحدى الكراسات : « لا تضع وقتك فى التمنى ، وإلا ساءت عاقبتك ؛ اقرأ بفمك الكتاب الذى بيدك ؛ وخذ النصيحة ممن هو أعلم منك » . ولعل هذه العبارة الأخيرة من أقدم ما عرف من الحكم فى أية لغة من اللغات . وكان

النظام صارماً يقوم على أبسط المبادئ . وقد جاءت تلك العبارة المنمقة اللفظ فى إحـــدى المخطوطات : « إن للشباب ظهراً ، وهو يلتفت للدرس إذا ضرب . . . لأن أذنى الشاب فى ظهره » . وكتب تلميذ إلى مدرس سابق يقول : « لقد ضربت ظهرى ، فوصل تعليمك إلى أذنى » ومما يدل على أن هذا التدريب الحيوانى لم يفلح على الدوام ما جاء فى إحدى البرديات التى يأسف فيها مدرس لأن تلاميذه السابقين لا يحبون الكتب بقدر ما يحبون الخمر(١٣٥) .

لكن عدداً كبيراً من طلبة الهياكل تخرجوا رغم هذا على أيدى الكهنة ودخلوا المدارس العليا الملحقة بمكاتب خزانة الدولة . وفى هذه المدارس ، وهى أقدم ما عرف من المدارس التى تعلم نظم الحكم ، كان الكتبة يدرسون نظم الإدارة العامة ، حتى إذا ما أتموا دراستهم قضوا مدة التمرين عند بعض الموظفين يعلمونهم بكثرة ما يعهدون إليهم من الأعمال . ولعل هذه الطريقة فى الحصول على الموظفين العموميين وتدريبهم أفضل من الطريقة التى تتبعها نحن فى هذه الأيام طريقة اختيار الموظفين على أساس أقوال الناس فيهم ، واستعدادهم للطاعة والخضوع ، وما يثار حولهم من دعاوة . وعلى هذا النمط أنشأت مصر وبابل فى عصر واحد تقريباً أقدم ما عرف من النظم المدرسية فى التاريخ(١٣٦) . ولم يرق نظام التعليم العام للشبان فيما بعد إلى هذا المستوى الذى بلغه فى أيام المصريين الأقدمين إلا فى القرن التاسع عشر .

وكان يسمح للطالب فى الفرق الراقية أن يستعمل الورق — وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريون على العالم وكانت طريقة صنعه أن تقطع سوق نبات البردى شرائح توضع متقاطعة بعضها فوق بعض ثم تضغط ويصنع منها الورق عماد المدنية(١٣٧) ، (وأعظمها سخفاً) . وحسبنا دليلا على حسن صنعه أن ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف عام لا يزال حتى الآن باقياً متماسكاً سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع

من الأوراق بضمها بعضها إلى بعض والصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التى تليها ، فتكون منها ملفات يبلغ طول الواحد منها أحياناً نحو أربعين ياردة ، وقلما كانت تزيد على هذا فى الطول لأن مصر لم يكن فيها مؤرخون مولعون بالحشو واللغو . وكانوا يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى بمزج الصناج والصمغ النباتى بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام(١٣٨) .

وبهذه الأدوات الحديثة الطراز كان المصريون يكتبون أقدم الآداب ؛ ويرجح أن لغتهم قد جاءت من آسية ، وشاهد ذلك أن أقدم نماذج منها بينها وبين اللغات السامية شبه كبير(١٣٩) . ويبدو أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية — تعبر عن الشىء برسم صورة له . فكانت كلمة بيت مثلاً (وهى فى اللغة المصرية بر) يرمز لها بشكل مستطيل ذى فتحة فى أحد طوليه . ولما كانت بعض المعانى مجردة إلى حد يصعب معه تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعانى ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التى توحى بها لا عن الشىء المصور نفسه ، فكان مقدم الأسد يعبر عن السيادة (كما هو فى تمثال أبى الهول) ، وكان الزنبور يعبر عن الملكية ، وفرخ الضفدع عن الآلاف . ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً فى هذا الطريق نفسه ، فأصبحت المعانى المجردة التى عجزوا فى بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور لأشياء تشبه أسماؤها مصادفة الألفاظ التى تعبر عن هذه المعانى . من ذلك أن صورة المِزْهر لم تكن تعنى المزهر نفسه فحسب بل كان معناها أيضاً طيّب أو صالح لأن منطق اسم المزهر فى اللغة المصرية — نِنِر — شبيه بمنطق اللفظ الذى يعبر عن معنى طيب أو صالح — نُفِر — . ونشأت من هذا الجناس اللفظى ، أى من الألفاظ المتفقة فى اللفظ ، والمختلفة المعنى — تراكيب غاية فى الغرابة . من ذلك أن فعل الكينونة كان يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ **فوبيرو** . وقد عجز الكاتب

المصرى فى أول الأمر عن إيجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى أخيراً إلى تقطيع الكلمة إلى ثلاثة مقاطع خو — بى — رو . ثم عبّر عن هذه المقاطع الثلاثة بصورَ الغربال (الذى يعبر عنه فى لغة الكلام بلفظ خو) وبالحصيرة (بى) وبالفم (رو) . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحى بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصرى مقاطع الكلمة ، والصوة التى ترمز لكل مقطع ، ومجموعة الصور التى ترمز لكل لفظ ، فكان الكُتّاب يقطعون الكلمة الصعبة مقاطع ، ويبحثون عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسمون مجموعة الأشياء المادية التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون ، فلا يكاد يوجد معنى من المعانى لا يستطيعون التعبير عنه بعلامة أو بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية إلا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعنى أولا كلمة البيت — بِرْ . ثم أصبحت رمزاً للصوت بِرْ ، ثم لهذين الحرفين أيا كانت حركاتهما وفى أية كلمة جاءتا ، ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أيا كانت حركتها وفى أية كلمة كانت . وإذ كانت الحركات لا تكتب عقب الحروف بل تهمل كلية فإن هـــذه الصورة أصبحت تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه أصبحت العلامة الدالة على اليد (وتنطق باللغة المصرية دُتْ) تعنى دُ ، دَ ثم أصبحت هى حرف د ، وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم (رُ ، رَ) ثم أصبحت حرف ر ، والعلامة الدالة على الثعبان هى حرف ز ، وعلامة البحيرة (شى) هى حرف ش — الخ . وكانت نتيجـــة هذا التطور أن وجدت حروف هجائية عدتها أربعة وعشرون حرفاً انتقلت مع التجارة المصرية الفينيقية إلى جميع البلاد الواقعة حول البحر

المتوسط ، ثم انشرت عن طريق اليونان وروما حتى صارت أثمن ما ورثته الحضارة من بلاد الشرق(١٤٠) . والكتابة الهيروغليفية قديمة قدم الأسر المصرية الأولى ، أما الحروف الهجائية فكان أول ظهورها فى النقوش التى خلفها المصريون فى مناجم سيناء ، ويرجعها بعض المؤرخين إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وبعضهم إلى عام ١٥٠٠ ق . م(١٤١)(*) .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها لحكمة فى ذلك أو لغير حكمة ، بل ظلوا إلى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقاطع الكلمات . ومن أجل هذا صعب على العلماء أن يقرأوا الكتابة المصرية ، ولكن من السهل علينا أن نتصور أن هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها . وإذ كانت أصوات الكلمات الإنجليزية لا تعد مرشداً أميناً لهجائها ، فإن الشاب الذى يريد أن يتعلم أساليب الهجاء الإنجليزية يجد فيها من الصعوبة ما كان يجده الكاتب المصرى فى حفظ الخمسمائة رمز هيروغليفى ، ومعانيها المقطعية ، واستعمالاتها حروفاً هجائية . ومن أجل هذا نشأ شكل سريع سهل من أشكال الكتابة استخدم فى الكتابات العادية ، واحتفظ بالطراز الأول منها ليستخدم فى « النقوش المقدسة » على الآثار . وإذ كان الكهنة وكتبة الهياكل هم أول من مَسخ الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد أطلق اليونان عليها اسم الكتابة الهيراطية (المقدسة) ، ولكنها سرعان ما عم استخدامها فى الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر من النمط الثانى اختصاراً

(*) يعتقد سير تشارلس مارستن معتمدا على أبحاثه الحديثة فى فلسطين أن الحروف الهجائية من اختراع الساميين ، ويعزوها إلى إبراهيم الخليل نفسه(١٤١) ويذكر لهذا أسبابا وهمية إلى أبعد حدود الوهم .

وأقل منه عناية ؛ ولذلك سمى بالكتابة الديموطيـــة (الشعبية) . لكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة — ولعلها أجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن .

٧ — الآداب

النصوص ودور الكتب — السندباد المصرى — قصة سنوحى — الروايات الخيالية — قطعة غرامية — أشعار الحب — التاريخ — ثورة فى الأدب

إن معظم ما بقى من آداب مصر القديمة مدون بالكتابة الهيراطية ، وهذا القدر الباقى قليل لا يغنى ؛ ولهذا فإننا لا نستطيع الحكم على الأدب المصرى القديم إلا من هذه البقايا القليلة ، وهو حكم أعمى للمصادفة فيه النصيب الأوفر . ولعل الزمان قد عدا على أعظم شاعر فى مصر ، ولم يبق إلا شعراء البلاط . وقد كان للمصريين دور كتب وخزنة عليها ؛ فقد كتب على قبر موظف كبير فى الأسرة الرابعة أنه « كاتب دار الكتب(١٤٢) » . ولسنا نعرف أكانت هذه الدار البدائية مستودعاً للأدب ، أم أنها لم تكن إلا مخزناً مترباً للسجلات والوثائق العامة . وأقدم ما بقى من الأدب المصرى القديم هو « نصوص الأهرام » وهى موضوعات دينية ورعة منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة(*)(١٤٣) . وقد وصلت إلينا مكتبات يرجع تاريخها إلى عام ٢٠٠٠ ق . م وتحوى برديات مطوية ومحفوظة فى جرار معنونة ومصفوفة على رفوف(١٤٥) . وعثر فى إحدى هذه الجرار على أقدم صورة من صور السندباد البحرى ، أو لعلنا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا أسميناها أقدم صورة من صور قصة رُبنسن كروزو :

(*) ووجدت طائفة أخرى من النقوش الجنازية من عصر متأخر عن هذا مكتوبة بالحبر على السطح الداخلى لبعض التوابيت الخشبية التى صنعت لتوضع فيها جثث بعض النبلاء وكبار الموظفين فى أيام الدولة الوسطى . وقد أطلق برستد وغيره من العلماء عليها كلها اسم « نصوص التوابيت (١٤٤) » .

وهذه القصة « قصة الملاح الذى حطمت سفينته » قطعة من ترجمة ذاتية لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً . ويقول هذا الملاح القديم فى أحد سطورها قولا يذكرنا بقول دانتى : « ما أعظم سرور من يقص ما وقع له حين ينجو من كارثة حلت به ! » . يقول هذا الملاح فى مطلع هذه القصة :

« سأقص عليك شيئاً حدث لى حين يممت شطر مناجم الملك ونزلت البحر فى سفينة طولها مائة وثمانون قدماً وعرضها ستون، وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين ، خبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأساً . . . من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور .

وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال فى البحر . . . ودفعتنا الرياح حتى كنا نطير أمامها . . . وثارت موجة علوها ثمان أذرع . . .

ثم تحطمت السفينة ، ولم ينج أحد ممن كان فيها ، وألقت بى موجة من أمواج البحر فى جزيرة ، قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردى لا رفيق لى إلا قلبى ؛ أنام تحت شجرة وأعانق الظلال ، ثم مددت قدمى أبحث عما أستطيع أن أضعه فى فمى ؛ فوجدت أشجار التين والكروم وجميع صنوف الكراث الجميل . . . وكان فيها سمك ودجاج ولم ينقصها شىء قط . . . وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أوقد به النار أشعلتها وقربت للآلهة قرباناً مشوياً(١٤٦) » .

وتروى قصة أخرى مغامرات سنوحى ، وهو موظف فرّ من مصر على أثر وفاة أمنمحيت الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد فى الشرق الأدنى ، وحظى فيها بضروب من النعيم والشرف ولكنه رغم هذا لم يطق صبراً على ما حلّ به من آلام الوحدة والحنين إلى وطنه . وبرح به الألم آخر الأمر حتى ترك ثروته وعاد إلى مصر وقاسى فى طريقه إليها كثيراً من الشدائد والأهوال . وقد جاء فيها :

« ألا أيها الإله ، أيّاً كنت ، يا من قدّرت علىّ هذا الفرار ، أعِدْنى إلى البيت (أى الملك) . ولعلك تسمح لى أن أرى الموضع الذى يقيم فيه قلبى ،

وأى شىء أعظم من أن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت فيها ؟ أعنّى على أمرى ! وليصبنى الخير ، وليرحمنى الله ! » .

ثم نراه بعدئذ وقد عاد إلى وطنه ، متعباً ، يعلوه العثير من طول السفر فى الصحراء ، يخشى أن ينتهره الملك لطول غيابه عن بلد يراه أهله — كما يرى الناس بلادهم سائر الأزمان — البلد المتحضر الوحيد فى العالم : ولكن الملك يعفو عنه ويحسن استقباله ويحبوه بكل أنواع العطور والأدهان :

« وأقمت فى بيت أحد أبناء الملك ، حيث توجد أفخر ضروب الأثاث ، وكان فيه حمام . . . وزالت عن جسمى آثار السنين الطوال ؛ وقص شعرى ، ومشط ، وطرح فى الصحراء حمل (من الأقذار ؟) وأعطيت الملابس (القذرة) لروّاد الرمال . وجىء لى بأرق الملابس الكتانية وعطّر جسمى بأحسن الزيوت »(١٤٧) .

أما القصص القصيرة فكثيرة متنوعة فيما وصل إلينا من يقايا الأدب المصرى القديم . ومن هذه قصص عجيبة بديعة عن الأطياف والمعجزات والتلفيقات العجيبة التى تخلب الألباب والتى لا تقل فى سبكها وقربها من الحقائق عن قصص الشرطة السرية التى يصدقها رجال الحكم فى هذه الأيام . ومنها روايات غرامية مكتوبة بعبارات طنانة رنانة عن الأمراء والأميرات ، والملوك ، والملكات ، ومن بينها أقدم مثال معروف لقصة سندرلا ، وقدمها الصغيرة الجميلة ، وحـــذائها الجوال ، وانتهاء القصة بزواجها من ابن الملك(١٤٨) . وفيها قصص خرافية على لسان الطير والحيوان تفصح عن نقائص الآدميين وشهواتهم وعواطفهم ، وتهدف فى حكمة وتعقل إلى معان خلقية سامية(١٤٩) ، كأنما هى منقولة عن خرافات إيزوب ولافنتين .

ومن القصص المصرية التى تمزج الحوادث الطبيعية المعقولة بخوارق الطبيعة ، والتى تعد نموذجاً لغيرها من القصص المصرية ، قصة أنوپو وبيتيو ، وهما أخوان صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة فى مزرعة لهما حتى هامت زوجة

أنوبو بحبه بيتيو ، فردها عن نفسه ، فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً . وجاءت الآلهة والتماسيح لتعين بيتيو على أنوبو ولكن بيتيو ينفر من بنى الإنسان ويضيق بهم ذرعاً ويبتر نفسه ليبرهن بذلك على براءته ، ويعتزل العالم إلى الغابات كما فعل تيمن الأثينى(*) فيما بعد ؛ ويعلق قلبه فى أعلى زهرة فى شجرة لا يستطيع الوصول إليها أحد ؛ وتشفق عليه الآلهة فى وحدته فتخلق له زوجة رائعة الجمال يشغف النيل بحبها لفرط جمالها ، ويختلس غديرة من شعرها . وتحمل مياه النهر هذه الغديرة فيعثر عليها الملك ، فيسكره عطرها ، ويأمر أتباعه بالبحث عن صاحبتها . ويعثر هؤلاء عليها ويأتونه بها ، ويتزوجها ، وتدب فى قلبه الغيرة من بيتيو فيرسل رجاله ليقطعوا الشجرة التى علق عليها بيتيو قلبه ، ويقطعها هؤلاء ولا تكاد الزهرة تلمس الأرض حتى يموت بيتيو(١٥٠) . ألا ما أقل الفرق بين أذواقنا وأذواق من سبقونا من الخلق !

وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية ، وأقدم القصائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام . وصيغتها هى أيضاً أقدم الصيغ المعروفة لنا ، وهى عبارة عن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن المصريين والبابليين هذه الطريقة وخلدوها فى المزامير(١٥١) . وفى عصر الانتقال من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى تصطبغ الآداب تدريجاً بالصبغة الدنيوية « الدنسة » . وفى قطعة من بردية قديمة لمحة خاطفة تشير إلى طائفة من الأدب الوجدانى بقيت لنا لأن كاتباً من كتبة الدولة القديمة قد منعه الكسل أن يتم محو ما على هذه البردية من كتابة فبقى عليها خمسة وعشرون سطراً تستطاع قراءتها ، وتروى قصة لقاء بين راع وإحدى الإلهات . وتقول هذه القصة « إن الإلهة التقت بالراعى وهو سائر فى طريقه إلى البركة ، وكانت قد خلعت ملابسها وأرخت شعرها » . ويروى الشاعر ما حدث بعدئذ رواية الحذر الحريص فيقول :

(*) انظر قصة تيمن الأثينى فى ترجمتنا العربية لكتاب « قصص من شيكسبير » .

« إليك ما حدث حين نزلت إلى المستنقع . . . رأيت فيه امرأة لم تكن صورتها كصورة الخلائق الفنانين . وانتصب شعرى قائماً على أطرافه حين أبصرت غدائرها ، وذلك لفرط جمالها وبهائها . ولن أفعل قط ما قالته لى ؛ فقد تملكت الرهبة منها جسدى »(١٥٢) .

ولدينا من أغانى الحب الجميلة عدد كبير ، ولكن معظمها يتحدث عن غرام الإخوة والأخوات(*) ، ولهذا تسخر منه أذن السامع فى هذه الأيام وتصطك لسماعه . ومن هذه الأغانى مجموعة سميت « الأغانى الجميلة السارة التى غنتها أختك حبيبة قلبك ، التى تسير فى الحقول » .

ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها :

إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير ؛
وفى الظلام تمساح رابض ؛
ولكننى أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج .
ويشتد بأسى فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمى سواء ،
لأن حبها يملأ قلبى قوة .
فهى لى كتاب من الرقى والتعاويذ .
وإذا رأيت حبيبتى مقبلة ابتهج لمرآها قلبى
وفتحت ذراعى ومددتهما لأضمها إلى صدرى
وينشرح قلبى أبد الدهر . . . لأن حبيبتى قد أقبلت .

(*) يظن بعض المؤرخين أن لفظى الأخ والأخت اللذين يردان فى الأغانى الغزلية المصرية لا يقصد بهما دائما أن الفتى والفتاة ابنا أب واحد أو أم واحدة ، بل قد يكونان لفظى إعزاز يطلق على المحب أو المحبوبة . (المترجم)

فإذا ما ضممتها كنت كمن فى أرض البخور ،
وكمن يحمل العطور ،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرتُ من غير خمر ،
يا ليتنى كنت جاريتها الزنجية التى تقف بين يديها
حتى أرى لون أعضائها كلها(١٥٣) .

وقد قسمنا نحن هذه السطور من عندنا على غير قاعدة ، وليس فى وسعنا أن نستدل من الصورة الأصلية لهذه الوثيقة على أن ما عليها شعر أو نثر . لقد كان المصريون يعرفون أن النغمة الموسيقية والعاطفة القلبية هما جوهر الشعر وقوامه ، فإذا ما وجدت النغمة والعاطفة فلن تهمهم الصورة الخارجية قط . على أن العبارات فى بعض الأحيان كان لها وزن يقاس بالنبرات . وكان الشاعر فى بعض الأحيان يبدأ كل جملة أو مقطوعة بنفس الكلمة التى بدأ بها غيرها من الجمل أو المقطوعات السابقة ، وكان يعمد أحياناً إلى الجناس اللفظى فيأتى بالألفاظ المتشابهة فى أصواتها ذات المعانى المختلفة أو المتناقضة ، وتدل النصوص على أن تجنيس الأحرف فى أوائل الكلمات المتتابعة قديم قدم الأهرام نفسها(١٥٤) . وكان حسب المصريين هذه الصيغ النسيطة ، فقد كان فى مقدور شاعرهم أن يعبر بها عن كل لون من ألوان الحب العذرى الذى يظن نيتشه أنه من اختراع شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى وتدل بردية هرسى على أن المرأة كانت تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف كما يعبر عنها الرجل :

أنا أختك الأولى ،
وأنت لى كالروضة
التى زرعت فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها ؛

وأجريتُ فيها غديراً
لكى تضع فيها يدك
إذا ما هبت ريح الشمال باردة .
وهى المكان الجميل الذى نتنزه فيه
حين تكون يدى فى يدك .
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا
لأننا نسير معاً ؛
إن سماع صوتك ليسكرنى ،
وحياتى كلها فى سماعك ،
وإن رؤيتك
لأحب إلىّ من الطعام والشراب(١٥٥) .

وإذا نظرنا إلى هذه القطع الباقية فى مجموعها اعترتنا الدهشة من تباين موضوعاتها ، فهى تشمل رسائل رسمية ، ووثائق قانونية ، وقصصاً تاريخية ، وطلاسم سحرية ، وترنيمات مجهدة ، وكتباً دينية مليئة بعبارات التقى والورع ، وأغانى الحب والحرب ، وأقاصيص غرامية قصيرة ، ونصائح تحضّ على حُسن الخلُق ، ومقالات فلسفية ، وجملة القول أن فيها مثلا من كل شىء عدا الملاحم والتمثيليات ، وحتى هذه يستطيع الإنسان أن يقول مع بعض التجاوز إن فيها أمثاة منها . وإن قصة النصر الذى أحرزه رمسيس الثانى بجرأته المدهشة والتى نقشت شعراً على حجارة أبواب الأقصر العظيمة لهى ملحمة على الأقل فى طولها وفيما تبعثه فى نفس قارئها من ملل . ويتباهى رمسيس الرابع فى نقش آخر بأنه فى بعض الألعاب قد حمى أوزير من ست وأعاد الحياة إلى أوزير(١٥٦) . وليس لدينا من المعلومات ما نستطيع به أن نبسط القول فى معنى هذه الإشارة .

وكتابة التاريخ فى مصر قديمة قدم التاريخ نفسه ، بل إن ملوك عصر ما قبل

الأسر كانوا يحتفظون بسجلات تاريخية تفاخراً وإعجاباً بأنفسهم(١٥٧) . وكان المؤرخـــون الرسميون يصحبون الملوك فى حملاتهم ، ولكنهم لا يبصرون هزائمهم ، بل يسجلون ، أو يخترعون من عندهم ، تفاصيل نصرهم ، لأن كتابة التاريخ كانت قد أضحت حتى فى ذلك العصر البعيد للزينة والتجمل . وأخذ العلماء المصريون من عام ٢٥٠٠ ق . م يكتبون قوائم بأسماء ملوكهم ، ويؤرخون السنين بحكمهم ، ويذكرون الحوادث الهامة فى كل حكم وفى كل عام . فلما تولى تحتمس الثالث الملك كانت هذه الوثائق قد أصبحت تواريخ بحق ، تفيض بالعواطف الوطنية(١٥٨) . وكان فلاسفة الدولة الوسطى يرون أن الإنسان والتاريخ نفسه قد تقادم بهما العهد وأضنتهما الشيخوخة ، وأخذوا يندبون ما انقضى من شباب جنسهم الفنى . وشكا عالم فى عهد سنوسريت الثانى أى حوالى ٢١٥٠ ق . م من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . وقال فى أسى وحسرة : « ألا ليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالا بلغة جديدة لم ينقض عهدها ، وليس فيما تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل »(١٥٩) .

ولقد أخفى تقادم العهد ما فى الأدب المصرى من تباين كما يخفى ما بين أفراد الشعوب غير المألوفة للإنسان من فروق . بيد أن الآداب المصرية فى خلال تطورها الطويل قد مرّت بحركات ونزعات لا تقلّ فى تباينها عن الحركات والنزعات التى اضطرب بها تاريخ الآداب الأوربية . وتغيرت لغة الكلام فى مصر تغيراً تدريجياً على مرّ الزمان ، كما تغيرت لغة الكلام فى أوربا من بعد ، حتى أصبحت هذه اللغة فى آخر الأمر وكأنها لغة أخرى غير التى دُوِّنت بها كتب الدولة القديمة . وظل المؤلفون وقتاً ما يكتبون باللغة الأولى ، وظل العلماء يدرسونها فى المدارس والطلاب لا يجدون مندوحة من دراسة « الآداب القديمة » مستعينين بكتب النحو والمعاجم وبالتراجم التى « بين السطور » فى بعض الأحيان . فلما كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثار

المؤلفون المصريون على هذا الخضوع المزرى للتقاليد ، وفعلوا مثل ما فعل دانتى وتشوسر من بعد ، فأقدموا على الكتابة بلغة الشعب ، ولقد كتبت ترنيمة إخناتون للشمس ، وهى الترنيمة الذائعة الصيت ، باللغة الدارجة .

وكان الأدب الجديد أدباً واقعياً ، فتياً ، مبهجاً . وكان يسر منشئيه أن يسخروا من الأدب القديم ويصفوا الحياة الجديدة . ثم فعل الزمن فعله بهذه اللغة الجديدة فأصبحت هى أيضاً لغة أدبية لها أصولها وقواعدها رقيقة دقيقة ، جامدة مقيدة فى ألفاظها وتعبيراتها بما جرى عليه العرف . واختلفت مرة أخرى لغة الكتابة عن لغة الكلام وانتشر التحذلق ، حتى كانت المدارس المصرية فى عصر ملوك ساو تقضى نصف وقتها فى دراسة « الآداب القديمة » آداب عهد إخناتون وترجمتها(١٦٠) . وحدث مثل هذا التطور فى اللغات القومية فى عهد اليونان والرومان والغرب ، ولا يزال يجرى فى مجراه فى هذه الأيام ، ذلك أن كل شىء يسير ولا يبقى جامداً لا يتغير إلا العلماء .

٨ — العلوم

منشأ العلوم المصرية — الرياضيات — علم الفلك والتقويم — التشريح ووظائف الأعضاء — الطب والجراحة والقوانين الصحية

كان معظم علماء مصر من الكهنة ، وذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما فى الهياكل من راحة وطمأنينة ، فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية رغم ما كان فى عقائدهم من خرافات . وهم يقولون فى أساطيرهم إن العلوم قد اخترعها من ١٨٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصرى فى خلال حكمه على ظهر الأرض البالغ ثلاثة آلاف من الأعوام ، وإن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التى وضعها هذا الإله

العالم(١٦١) (*) . وليس لدينا من العلم ما نستطيع به أن نفصل القول فى نظرية نشأة العلوم فى مصر .

وحسبنا أن نقول إنا نجد العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدوّن ؛ وشاهِد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة فى القياس لا يستطاع الوصول إليها بغير معرفة واسعة العلوم الرياضية ، وقد أدى اعتماد الحياة فى مصر على ارتفاع النيل وانخفاضه إلى العناية بتسجيل هذا الارتفاع والانخفاض وإلى حسابهما حساباً دقيقاً . وكان المساحون والكتبة لا ينقطعون عن قياس الأراضى التى محا الفيضان معالم حدودها ، وما من شك فى أن القياس كان منشأ فن الهندسة ، وشاهِد ذلك أن اسمه الأجنبى (gsometry) مشتق من كلمتين معناهما قياس الأرض(١٦٣) . والأقدمون كلهم تقريباً مجمعون على أن هذا العلم من وضع المصريين(١٦٤) ، وإن كان يوسفوس يظن أن إبراهيم قد جاء بالحساب من كلديا (أى من أرض الجزيرة) إلى مصر(١٦٥) ، وليس من المستحيل أن يكون الحساب وغيره من العلوم والفنون قد جاءت إلى مصر من « أور الكلدان » أو من غيرها من مراكز آسيا الغربية .

وكانت الأرقام سمجة متعبة — فقد كان رقم ١ يمثل له بشرطة ، ورقم ٢ بشرطتين ، و٣ بثلاث شرط ، . . و٩ بتسع شرط ، وتمثل العشرة بعلامة خاصة والعشرون باثنتين من هذه العلامات والثلاثون بثلاث منها . . . والتسعون بتسع والمائة بعلامة أخرى جديدة والمائتين بعلامتين والثلثمائة بثلاث علامات . . . والتسعمائة كفًّا بكف فوق رأسه كأنه يعبر عن دهشته من وجود مثل هذا العدد

(*) وهذا ما يؤكده لنا يمبلكس (خوالى ٣٠٠ ب . م) أما منيثون المؤرخ المصرى الذى عاش حوالى عام ٣٠٠ ق . م فيرى أن هذا التقدير لا ينصف الإله ؛ ويقدر عدد ما وضع تحوت من الكتب بستة وثلاثين ألف كتاب . وكان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس ترسمجستس — هرمس (عطارد) المثلث العظمة(١٦٢) .

الكبير(١٦٦) . وكاد المصريون أن يصلوا إلى الطريقة العشرية فى الأعداد ؛ وإن لم يعرفوا الصِّفْر أو يصلوا قط إلى فكرة التعبير عن جميع الأعداد بعشرة أرقام ، بل كانوا يعبرون عن رقم ٩٩٩ مثلا بسبع وعشرين علامة(١٦٧) . وكانوا يعرفون الكسور الاعتيادية ، ولكن بسط هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام ؛ فكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{٣}{٤}$ كتبوها $\frac{١}{٢} + \frac{١}{٤}$ (*) . وجداول الضرب والقسمة قديمة قِدم الأهرام ، وأقدم رسالة فى الرياضة عرفت فى التاريخ هى بردية أحمس التى يرجع تاريخها إلى ما بين عام ألفين وألف وسبعمائة قبل الميلاد ؛ ولكن هذه البردية نفسها تشير إلى كتابات رياضية أقدم منها بخمسمائة عام . وهى تحسب سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى(١٦٨) . ولم تقتصر الهندسة المصرية على قياس مساحات المربعات والدوائر والمكعبات ، بل كانت تقيس أيضاً أحكام الاسطوانات والكرات ، وقد وصلت إلى تقدير النسبة التقريبية بـ ١٦ر٣(١٦٩) . وما أعظم فخرنا إذا استطعنا فى أربعة آلاف عام أن نتقدم فى حساب هذه النسبة التقريبية من ١٦ر٣ إلى ٢٤١٦ر٣ .

ولسنا نعرف شيئاً عما وصل إليه المصريون فى علمى الطبيعة والكيمياء ، ولا نكاد نعرف شيئاً عما وصلوا إليه فى علم الفلك . ويلوح أن راصدى النجوم فى الهياكل كانوا يظنون الأرض صندوقاً مستطيلا تقوم فى أركانه الجبال لتمسك السماء(١٧٠) . ولم يشيروا بشىء إلى الخسوف والكسوف ، وكانوا فى هذا العلم بوجه عام أقل رقيا من معاصريهم فى أرض النهرين ، ولكنهم مع هذا كانوا يعرفون منه ما يكفى للتنبؤ باليوم الذى يرتفع فيه النيل ، وأن يتجهوا بهاكاتهم نحو الشرق فى النقطة التى تشرق منها الشمس فى صباح يوم الانقلاب الصيفى(١٧١) . ولربما كانوا

(*) لقد ظل الكتبة فى التفاتيش الزراعية إلى عهد قريب يعبرون عن الـ $\frac{٣}{٤}$ فيما يسمونه صورة الفدان بقولهم $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٤}$. (المترجم)

يعرفون أكثر مما عنوا بإذاعته بين شعب كانت خدماته عظيمة القيمة لحكامه . وكان الكهنة يرون أن دراساتهم الفلكية من العلوم السرية الخفية التى لا يحبون أن يكشفوا أسرارها للسوقة من الناس(١٧٢) . وظلوا قروناً طوالا متتالية يتبعون مواقع الكواكب وحركاتها حتى شملت سجلاتهم فى هذه الناحية آلاف السنين . وكانوا يميزون الكواكب السيارة من النجوم الثوابت ، وذكروا فى فهارسهم نجوماً من القدر الخامس (وهى لا تكاد ترى بالعين العادية) وسجلوا ما ظنوه أثر نجوم السماء فى مصائر البشر . ومن هـذه الملاحظات أنشأوا التقويم الذى أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان .

وبدأوا تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول فى كل واحد منها أربعة شهور ، أولها فصل ارتفاع النيل وفيضه وانحساره ، وثانيها فصل الزرع ، وثالثها فصل الحصاد . وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً لأن هذا العدد هو أقرب الأعداد السهلة إلى طول الشهر القمرى الذى يبلغ تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكان لفظ الشهر فى لغتهم كما هو فى اللغة الإنجليزية مشتقاً من رمزهم للقمر(*) . وكانوا يضيفون بعد آخر الشهر الثانى عشر خمسة أيام حتى تتفق السـنة فى الحساب مع فيضان النهر ومع مواقع الشمس(١٧٤) . واختاروا لبدء السنة اليوم الذى يصل فيه النيل عادة إلى أقصى ارتفاعه واللذى كانت فيه الشعرى العظيمة (وكانوا يسمونها سوثيس) تشرق مع الشمس فى وقت واحد . ولما كان التقويم المصرى يجعل السـنة ٣٦٥ يوماً بدل ٣٦٥¼ ، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس وهو الذى كان فى أول الأمر صـغيراً لا يكاد يدرك قد ازداد حتى

(*) لقد كانت الساعة المائية معروفة عند المصريين من زمن بعيد ، ومن أجل هـذا كانوا يعزون اختراعها إلى تحوت إلههم المتعدد الكفايات . وأقدم الساعات الموجودة لدينا يرجع عهدها إلى أيام تحتمس الثالث ، وهى الآن فى متحف برلين . وتتكون من قضيب من الخشب مقسم ستة أقسام تمثل ست ساعات وفوقه قطعة مستعرضة وضعت بحيث يدل ظلها الواقع على القضيب على الساعة قبل الظهر أو بعده(١٧٣) .

بلغ يوماً كاملا فى كل أربع سنين . وبذلك كان التقويم المصرى يختلف عن التقويم السماوى الحقيقى بست ساعات فى كل عام . ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ ، حتى جاء فلكيو الإسكندرية اليونان فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر (فى عام ٤٦ ق . م) وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين . وهذا هو ما يسمونه التقويم اليوليسى . ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر (١٥٨٢) وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من فبراير) من السنين المتممة للمئات التى لا تقبل القسمة على ٤٠٠ ، وهذا هو « التقويم الجريجورى » الذى نستخدمه اليوم . وجملة القول أن تقويمنا فى جوهره من وضع الشرق الأدنى القديم(١٧٥)(*) .

(*) لما كان شروق الشعرى منسوبا إلى الشمس يتأخر يوماً كاملا فى كل أربع سنين عما يتطلبه التقويم المصرى ليكون الشروقان متفقين على الدوام ، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً فى كل ١٤٦٠ عاماً . وحين تكمل هذه الدورة السوثية (كما كان المصريون الأقدمون يسمونها) يعود التقويم المكتوب والتقويم السماوى إلى الاتفاق . وإذ كنا نعرف من سنوريس المؤلف اللاتينى أن شروق الشعرى الشمسى (منسوباً إلى شروق الشمس) وقد اتفق فى عام ١٢٩ ق . م مع بداية سنة التقويم المصرى القديم ، فإن من حقنا أن نفترض أن هذا التوافق بعينه كان يحدث فى كل ١٤٦٠ سنة قبل ذلك التاريخ الأخير ، أى فى عام ١٣٢١ ق . م ، وفى عام ٢٧٨١ ق . م ، وفى عام ٤٢٤١ ق . م الخ . ولما كان من الواضح أن التقويم المصرى قد وضع فى سنة كان فيها شروق الشعرى الشمسى (أى المنسوب إلى الشمس) قد وقع فى أول يوم من أول شهور السنة ، فإنا نستدل من هذا على أن ذلك التقويم قد بدأ العمل به فى سنة كانت فاتحة دورة سوثية . وقد ورد ذكر التقويم المصرى الأول مرة فى النصوص الدينية المنقوشة فى أهرام الأسرة الرابعة . ولما كان عهد تلك الأسرة يرجع بلا جدال إلى ما قبل عام ١٣٢١ ق . م ، فإن التقويم لا بد أن يكون قد وضع فى عام ٢٧٨١ ق . م أو فى عام ٤٢٤١ ق . م أو قبل هاتين السنتين . وكان الاعتقاد السائد أن أقدم العامين أى عام ٤٢٤١ ق . م هو أول ما حدد من الأعوام فى تاريخ العالم ، ولكن الأستاذ شارف **Scharf** يعارض فى هذا ، وليس ببعيد أن نضطر إلى الأخذ بالرأى الثانى وهو أن عام ٢٧٨١ أو عاما قريباً منه هو مولد التقويم المصرى القديم . فإن صح هذا وجب أن نصحح التواريخ السالفة الذكر والتى حددناها لحكم الأسرة الأولى وتشييد الأهرام العظيمة بحيث تكون أقرب إلينا بنحو ثلثمائة عام أو أربعمائة . ولما كان هذا الموضوع لا يزال مثاراً للجدل فقد اعتمدنا فى هذا الكتاب على التواريخ الواردة فى كتاب التاريخ القديم لجامعة كمبردج **(Cambridge Ancient History)**

ولم يتقدم المصريون فى دراسة جسد الإنسان تقدماً يستحق الذكر رغم ما أتاحه لهم فن التحنيط من فرص لهذه الدراسة . فقد كانوا يظنون أن الأوعية الدموية تحمل هواء وماء ونفايات من السوائل . وكانوا يعتقدون أن القلب والأمعاء مركز العقل . ولعلنا إذا عرفنا ما كانوا يقصدونه بهذه المصطلحات لا نجدهم يختلفون عنا كثيراً فى معتقداتنا الأكيدة التى لا نثبت عليها إلا قليلا . ولكنهم وصفوا بكثير من الدقة العظام الكبرى والأمعاء ، وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة فى الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية . وقد جاء فى بردية إيبرز(١٧٦) أن « أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب إصبعه على جبهة الإنسان ، أو على موخر الرأس ، أو على اليدين ... أو على القدمين فإنه يلتقى بالقلب فى كل مكان » . ولم يكن بين هذا وبين أقوال ليوناردو وهارفى إلا خطوة واحـــدة — ولكنها خطوة تطلبت ثلاثة آلاف عام .

أما أكبر مفخرة علمية للمصريين فهى علم الطب . وكان الكهنة هم البادئين به كما أن فيه من الشواهد ما يدل على أن هذه البداية قد نبتت من السحر . وشأن الطب فى هذا يكاد يكون شأن كل شىء آخر فى حياة مصر الثقافية . وكانت التمائم أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض أو للوقاية منها . وكان المرض فى اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسم ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ؛ فقد كان الزكام مثلا يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : « اخرج أيها البرد يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وتتلف الجمجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة . اخرج على الأرض . دفر . دفر . دفر ! »(١٧٧) — وأكبر الظن أن هذا علاج لا يقل فى مفعوله عن أى علاج نعرفه اليوم لهذا المرض القديم .

ثم نرتفع فى مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والإخصائيين الذين ساروا فى صناعة الطب على قانون أخلاقى ظل يتوارث جيلا بعد جيل حتى وصل إلى القسم الذائع الصيت قسم أبقراط(١٧٨) . وكان

من المصريين إخصائيون فى التوليد وفى أمراض النساء ، ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ، ومنهم أطباء العيون . وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحداً منهم إلى بلاد الفرس(١٧٩) . أولئك هم الإخصائيون ، أما غير الإخصائيين منهم فقد ترك لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس ؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضروا أدهان الوجه ، وصبغات الشعر ، وتجميل الجلد ، وأعضاء الجسم ومبيدات البراغيث (١٨٠) .

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث فى الشئون الطبية . وأعظمها قيمة بردية إدون اسمث ، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها ؛ وهى ملف طوله خمس عشرة قدماً ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق . م تقريباً وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيراً . وحتى لو ضربنا صفحاً عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البرية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة فى التاريخ . وهى تصف ثمانى وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف عن كسر فى الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكى . وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً فى نظام منطقى ذى عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائى موقت ، وفحص ، وبحث فى الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة ، وتشخيص العلة ، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها ، ثم تعليقات على المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها . ويشير المؤلف فى وضوح لا نجد له مثيلا قبل القرن الثامن عشر الميلادى إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن فى المخ » . وتلك أول مرة يظهر فيها هذا اللفظ فى عالم الطب(١٨١) .

وكان المصريون يستمتعون بطائفة كبيرة من الأمراض المتنوعة ، وإن كانوا قد قضى عليهم أن يموتوا بها من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية . وتحدثنا بردياتهم وأجسامهم المحنطة عن تدرن النخاع الشوكى وتصلب الشرايين ؛ والحصوات الصفراوية ، والجدرى وشلل الأطفال ، وفقر الدم ، والتهاب المفاصل ، والصرع

والنقرس ، والتهاب النتوء الحلمى ، والتهاب الزائدة الدودية ، وبعض الأمراض العجيبة . كالالتهاب للفقرى الأشوه ، وما يعترى نمو كراديس العظام الطويلة من نقص . وليست لدينا دلائل تثبت إصابتهم بالزهرى أو السرطان ، ولكن تقيح اللثة وتسوس الأسنان وهما اللذان لا أثر لهما فى أقدم الجثث المحنطة القديمة يظهران بكثرة فى الجثث المحنطة الباقية من العهود المتأخرة ؛ وذلك دليل على تقدم الحضارة فى هذه العهود . وكان ضمور عظم الإصبع الصغرى من أصابع القدم وانعدامها — وهى حالة كثيراً ما يعزى سببها إلى الأحذية الحديثة — من الحالات المنتشرة فى مصر القديمة ، حيث كان الأهلون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم يسيرون كلهم تقريباً حفاة(١٨٢) .

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من القراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها . فى بردية إيبرز ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة ، من عضة الأفعى إلى حمى النفاس ، وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٨٥٠ ق . م) أقماع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل(١٨٣) . وقد عثر فى قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوى على مزهريات ، وملاعق ، وعقاقير جافة ، وجذور . وكانت الوصفات الطبية تتذبذب بين الطب والسحر . وكان مفعول الخليط فى رأيهم يتناسب مع اشمئزاز النفس منه . ومما تصفه تذاكر الأطباء دم العظاية (السحلية) وأذن الخنزير وأسنانه ، واللحم والدهن النتن ، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت ، ولبن النفساء ، وماء المرأة الطاهرة وبراز الرجال والحمير والكلاب والآساد والقطط والقمل — كل هذه واردة فى تذاكر الأطباء ، وكان الصلع يعالج بتدليك الرأس بدهن الحيوان . وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان ، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان ، ومن الرومان إلينا . ولا نزال إلى اليوم نتجرع فى ثقة واطمئنان كثيراً من الأدوية التى خلطها

وجهزها لنا المصريون على شاطئ النيل فى أقدم الأزمان(١٨٣) .

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة(*) ، وبختان الذكور(١٨٥)(**) وبتعويد الناس أن يكثروا من استخدام الحقن الشرجية . ويقول ديودور الصقلى فى هذا المعنى :

وهم يتقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام المليِّنات وبالصوم وبالمقيئات ، كل يوم فى بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة فى البعض الآخر ، وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل فى الجسم من طعام يزيد على حاجته ، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد(†)

ويعتقد بلنى أن المصريين قد تعلموا عادة استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف « بأبى منجل » ، وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل فى دبره واستخدامه كالمحقن(١٨٨) . ويروى هيرودوت أن المصريين كانوا « يظهرون أجسامهم مرة فى كل شهر ثلاثة أيام متوالية ، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيئات والحقن الشرجية ، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام ، وهذا المؤرخ — وهو أول مؤرخ للحضارة — يصف المصريين بأنهم بعد الليبيين أصح شعوب العالم أجساماً(١٨٩) .

(*) وقد كشفت أعمال الحفر عن طريقة كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنابيب من النحاس .

(**) وفى أقدم القبور شواهد دالة على هذه العادة .

(†) إن المثل الحديث الذ يقول إننا نعيش على ربع ما نأكل وإن الأطباء يعيشون على الثلاثة الأرباع الباقية لمن أقدم الأمثال .

٩ — الفن

العمارة — النحت فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والإمبراطورية وفى عهد الملوك الساويين — النقوش القليلة البروز — التصوير — الفنون الصغرى — الموسيقى — الفنون

كان الفن أعظم عناصر هذه الحضارة ؛ فنحن نجد فى هذه البلاد ، وفى عهد يكاد يكون عهد بداية الحضارات ، فنًّا قوياً ناضجاً أرقى من فن أية دولة حديثة ، ولا يضارعه إلا فن اليونان . لقد كان ما امتازت به مصر فى أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغانم الظلم والحرب فى عهد تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، مما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكافية لتشييد المبانى الضخمة ، وتحت التماثيل المتينة ، والبراعة فى عدة فنون أخرى صغيرة ، كادت تبلغ حد الكمال فى هذا العهد السحيق . وإن المرء ليقف حائراً مشدوهاً لا يكاد يصدق ما وضعه الباحثون من نظريات لتطور الرقى البشرى إلى منتجاب الفن المصرى القديم .

وكانت العمارة(*) أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما تجمع فيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة . وقد بدأ هذا الفن بداية متواضعة بتزيين المقابر ونقش الوجهة الخارجية لجدران المنازل . وكانت كثرة المساكن تبنى من الطين تتخللها فى بعض الأحيان أعمال بسيطة من الخشب (كالنوافذ الشبكية اليابانية أو الأبواب الجميلة الحفر) ، والسقف المقامة على جذوع النخل السهلة العلاج . وكان يحيط بالدار عادة سور يضم فناء ، تصعد منه درج إلى سطح البيت ، ومنه ينزل السكان إلى الحجرات . وكان للموسرين من الأهلين حدائق خاصة يعنون بتنسيقها ؛ وكان فى الحواضر حدائق عامة للفقراء ، ولا يكاد يخلو بيت من أزهار

(*) اقرأ فى القسمين الأول والثالث من الجزء الأول من هذا الفصل وصف العمارة فى أيام الدولة القديمة .

الزينة ، وكانت جدران المنزل تزيّن من الداخل بحُصر ملوّنة ، وتفرش أرضه بالطنافس ، إذا كان رَبّ الدار ذا سعة . وكان السكان يفضلون الجلوس على هذه الطنافس عن الجلوس على الكراسى . وكان المصريون فى عهد الدولة القديمة يتناولون الطعام وهم جالسون مرتبعون وأمامهم موائد لا يزيد ارتفاعها على ست بوصات كما يفعل اليابانيون فى هذه الأيام ، وكانوا يأكلون بأيديهم على طريقة شيكسپير ، فلما كان عهد الإمبراطورية وقلّ ثمن العبيد أصبح أفراد الطبقات العليا يجلسون على كراسى عالية ذات وسائد ، ويقدّم لهم خدمهم أصناف الطعام صنفاً بعد صنف(١٩٠) .

وكانت أحجار البناء أغلى من أن تستخدم فى تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاصة بالكهنة والملوك . وحتى النبلاء أنفسهم — وهم الطائفة الكثيرة الطموح — آثروا المعابد بأكبر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء ، ومن هذا فإن القصور التى كانت تطل على النيل والتى لم يكد يخلو ميل من واحد منها فى عهد أمنحوتب الثالث قد تهدمت كلها وعفت آثارها ، على حين أن أضرحة الآلهة ومقابر الموتى قد بقيت إلى أيامنا هذه . ولما جاءت الأسرة الثانية عشرة لم يَعُد الهرم الطراز المحبب لمدافن الأموات ، ولهذا اختار ختوم حوتب (حوالى ١١٨٠ ق . م) لمدفنه عند بَنى حسن شكلا أهدأ من أشكال الهرم وهو قبر ذو عمد فى أحضان الجبل ؛ وما كادت هذه الفكرة تثبت وتستقر حتى اتخذت آلاف الأشكال المختلفة بين التلال الممتدة على جانب النيل الغربى . وهكذا خرجت من رمال مصر ما بين عهد الأهرام والعهد الذى شيد فيه هيكل حتحور عند دندرة — أى فى خلال ثلاثة آلاف عام أو نحوها — ضروب من العمائر المختلفة لم تفُقها قط عمائر أية حضارة من الحضارات الأخرى .

ففى الكرنك والأقصر أيكة من الأعمدة أقامها تحتمس الأول والثالث ، وأمنحوتب الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى وغيرهم من الملوك ما بين

الأسرة الثانية عشرة والاسرة الثانية والعشرين ، وفى مدينة حبو (حوالى ١٣٠٠ ق . م) صرح متسع الأرجاء ، وإن كان لا يضارع الصروح السالفة الذكر فى فخامتها ، قامت عليه فيما بعد قرية عربية وظلت جاثمة على صدره عدة قرون ؛ وفى أبيدوس (العرابة) شُيِّد هيكل سيتى الأول الذى لم يبق منه إلا خرائب ضخمة قاتمة كئيبة ، وفى إلفنتين معبد صغير هو معبد ختوم (حوالى ١٤٠٠ ق . م) « اليونانى فى دقة بنائه ورشاقته »[١٩١] ؛ وفى الدير البحرى بهو الأعمدة الذى شادته الملكة حتشبسوت ، وبالقرب منه الرمسيوم وهى أيكة أخرى من العمد والتماثيل الضخام شادها المهندسون والعبيد الذين سخرهم رمسيس الثانى ، وفى جزيرة فيلة هيكل إيزيس الجميل (حوالى ٢٤٠ ق . م) المهجور الموحش فى هذه الأيام لأن خزان أسوان قد غمر قواعد عمده التى بلغت فى عمارتها حد الكمال — وهذه البقايا القليلة المتفرقة إن هى إلا نماذج من الآثار القديمة التى لا تزال تجمل وادى النيل وتنطق خرابها نفسها بما كان عليه الشعب الذى شادها من قوة وبسالة . ولعل فى هذه الصروح إفراطاً فى الأعمدة وتقاربها بعضها من بعض لاتقاء حر الشمس اللافح ، ولعل فيها بعداً عن التناسب هو من خصائص الشرق الأقصى ، وافتقاراً إلى الوحدة ، وهياماً همجياً بالضخامة كهيام أهل هذه الأيام . فإن كان ذلك كذلك فإن فيها أيضاً عظمة وسمواً وجلالا وقوة ؛ فيها الأقواس والعقود[١٩٢] وهى إن قلت فما ذلك إلا لقلة الحاجة إليها ، ولكنها من حيث المبادئ التى شيدت عليها تسير فى طريق الانتقال إلى المبادئ التى شيدت عليها العمد والأقواس فى بلاد اليونان والرومان وفى أوربا الحديثة ؛ وفيها نقوش للزينة لا يفوقها غيرها من النقوش فى تاريخ العالم كله[١٩٣] ؛ وفيها عمد على صورة أعواد البردى والأزورد (اللوطس) ، وعمد من الطراز الدُّورى(*) الأول[١٩٤] وعمد فى صورة نساء[١٩٥] ، وتيجان للعمد منها ما هو فى صورة حتحور

(*) نسبة إلى الفن الدورى اليونانى الذى يمتاز ببساطته وصلابته . (المترجم)

ومنها ما هو على صورة النخيل ؛ وفيها قصور ذات نوافذ قرب السقوف ؛ وفيها عتبات فخمة تمتاز بالقوة والثبات اللذين هما روح الجاذبية القوية فى فن العمارة . لعمرى إن المصريين لهم أعظم البنائين فى التاريخ كله بلا جدال .

ومن الناس من يضيف إلى هذا أنهم أيضاً أعظم المثالين ، فلقد أنشأوا فى بداية تاريخهم تمثال أبى الهول . ذلك التمثال الذى يرمز إلى الصفات الأبدية التى اتصف بها أحد الفراعنة الأقوياء ، ولعل هذا الفرعون هو خفرع . والتمثال لا ينم عن القوة فحسب ، بل يفصح كذلك عن الصفات الخلقية . ولقد حطمت طلقة من مدافع المماليك أنف التمثال وحلقت لحيته ، ولكن ملامحه القوية الضخمة تعبر أحسن تعبير وأقواه عما اتصف به ذلك الملك من قوة ومهابة وهدوء ونضوج ، وكلها صفات يجب ألا تفارق الملوك . ولقد علت هذه الملامح الساكنة ابتسامة خفيفة لم تفارقها منذ خمسة آلاف من السنين ، كأنما الفنان المجهول الذى صاغه أو الملك المجهول الذى يرمز التمثال له ، كان يفهم كل ما يريد الخلْق أن يفهموه عن الخلق . والحق أنه هو « مونا ليزا » من الصخر الأصم .

وما من شىء فى تاريخ النحت أجمل من تمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت والذى يقوم فى متحف القاهرة . لقد كان هذا التمثال قديماً فى أيام بركستليز ، قدم بركستليز نفسه بالنسبة إلينا . ومع هذا فقد اجتاز حقبة من الزمان طولها خمسون قرناً ، ثم وصل إلينا ولم تكد تؤثر فيه عوادى الدهر ونوائبه . لقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة وأشدها استعصاء على الإنسان ، ولكنه ينقل إلينا أكمل ما يكون النقل قوة الملك (أو الفنان) البدنية ، وسلطانه وعناده وصلابة رأيه وبسالته وذكاءه . ويجلس بالقرب منه تمثال عابس متجهم لملك أقدم من صاحب التمثال الأول عهداً هو تمثال الملك زوسر المصنوع من حجر الجير . ومن بعده يكشف لك الدليل بعود الثقاب عن شفافية تمثال رائع من المرمر هو تمثال منقورع .

ويضارع تمثالا شيخ البلد والكاتب تماثيل الملوك من ناحية الإبداع

شكل (١٤) تمثال « شيخ البلد » من الخشب
فى متحف القاهرة

والإتقان الفنى الذى ليس بعده إتقان : ولقد وصل إلينا تمثال الكاتب فى عدة أشكال ، وكلها من عهود لا نعلمها علم اليقين ، ولكن أشهرها كلها تمثال الكاتب المتربع المحفوظ فى متحف اللوفر(*) . وليس تمثال شيخ البلد لشيخ بحق ولكنه تمثالُ مشرفٍ على الفعلة بيده عصا السلطة ، يخطو إلى الأمام كأنه يلاحظ عماله أو يصدر إليهم أوامره ويبدو أن اسمه هو كعبيرو ولكن العمال المصريين الذين أخرجوه من قبره فى سقارة قد أدهشهم ما رأوه من تشابه بينه وبين شيخ البلد الذى يسكنونه ، فأوحت إليهم فكاهتهم بهذا اللقب الذى اشتهر به والذى لا يزال إلى اليوم ملازماً له . وهذا التمثال مصنوع من الخشب المعرض للبلى ولكن الزمان لم يقو على تشويه جسمه الملىء ، أو ساقية الغليظتين ؛ وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك فى جميع الحضارات من سعة فى الرزق وقلة فى الكدح ، وينطق وجهه المستدير بقناعة الرجل الذى يعرف مكانته ويفخر بها . ويشعرنا رأسه الأصلع وثوبه المتهدل على واقعية الفن الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ من القدم درجة أجازت له أن يثور على التقاليد التى جعلت من الفن القديم مثلا أعلى يحتذى ، ولكن فيه أيضاً بساطة جميلة وإنسانية كاملة عبر عنها المثال بلا حقد ولا مرارة ، وعبر عنها فى يسر ورشاقة ، تمتاز بهما اليد الواثقة الصَّناع . وفى ذلك يقول مسبيرو « لو أن معرضاً أنشئ لروائع الفن فى العالم كله لاخترت هذا التمثال رمزا لعظمة الفن المصرى(١٩٦) — أو هل أصدق من هذا أن تختص بهذا الشرف تمثال خفرع ؟

هذه هى الروائع الفنية من تماثيل الدولة القديمة . ولكن هناك آيات فنية أخرى كثيرة أقل منها روعة ، منها تمثالا روع حوتب وزوجته الجالسان ، ومنها التمثال القوى للكاهن رنوفر ، ومنها تمثالا الملك فيوبس وولده المصبوبان من

(*) انظر وصفه السابق فى ص ٧٩ وتزين المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف الدولة فى برلين تماثيل أخرى للكاتب .

النحاس ، ومنها رأس باشق من الذهب ، ومنها الصورتان الهزليتان لعاصر الخمر وللقزم كنمحوتب ، وكلها إلا واحـــداً منها فى المتحف المصرى بالقاهرة ، وكلها — بلا استثناء — صور ناطقة بأخلاق أصحابها . ولسنا ننكر أن القطع المبكرة منها خشنة غير مصقولة الصنع ، وأن التماثيل قد صنعت وأجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام ، على حين أن الأيدى والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين ، وذلك جرياً وراء عرف غريب متبع فى جميع ضروب الفن المصرى(*) ، وأن الجسم لم يلق من الفنان عناية كبيرة ، وأنه مثل فى معظم الأحيان فى صورة راسخة مقننة لا تتفق مع الواقع — فكانت أجسام تماثيل النساء كلها تصوّرهن فتيات فى شرخ الشباب وتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء ، وأن للفردية وإن كانت قد بلغت فى فنهم درجة عالية قد احتفظ بها عادة فى الرءوس دون الأجسام . ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فنون النحت والتصوير والنقش البارز ، وما فرضه عليها الكهنة من قيود العرف ، ومن سلطان لهم شديد ، بالرغم من هذا كله فإن هذا النقص قد عوضه عمق فى التفكير ، وقوة ودقة فى التنفيذ ، وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وصقل . والحق أن فن النحت لم يكن فى بلد من البلاد أكثر حيوية مما كان فى مصر . إن تمثال الشيخ ليخرج على كل سلطان ، وإن المرأة التى تطحن الحَبّ لتقبل عليه بكل ما فى نفسها من أحاسيس وما فى جسمها من عضلات ، وإن الكاتب ليهمّ بالكتابة ، وإن آلاف الدمى الصغيرة التى وضعت فى المقابر لتقوم بالواجبات الضرورية للموتى قد صيغت كلها بحيث يبدو عليها من مظاهر النشاط والجد ما نكاد معه أن نعتقد — كما كان يعتقد المصريون الأتقياء — أن الموتى لا يمكن أن يشقوا ما دام هؤلاء الخدم من حولهم .

(*) هناك تماثيل كثيرة تشذ عن هذه القاعدة العامة منها تمثال شيخ البلد والكاتب ، وما من شك فى أن هذا العرف لم يكن ناشئاً عن عجز أو جهل بأصول الفن .

ولم تصل منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى إلى ما كانت عليه فى عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون كثيرة . وإذ كان معظم التماثيل إنما صنع للهياكل أو المقابر فقد كان الكهنة هم الذين يقررون إلى حد كبير الأنماط التى يلتزمها الفنان . ومن هذه السبيل تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة .

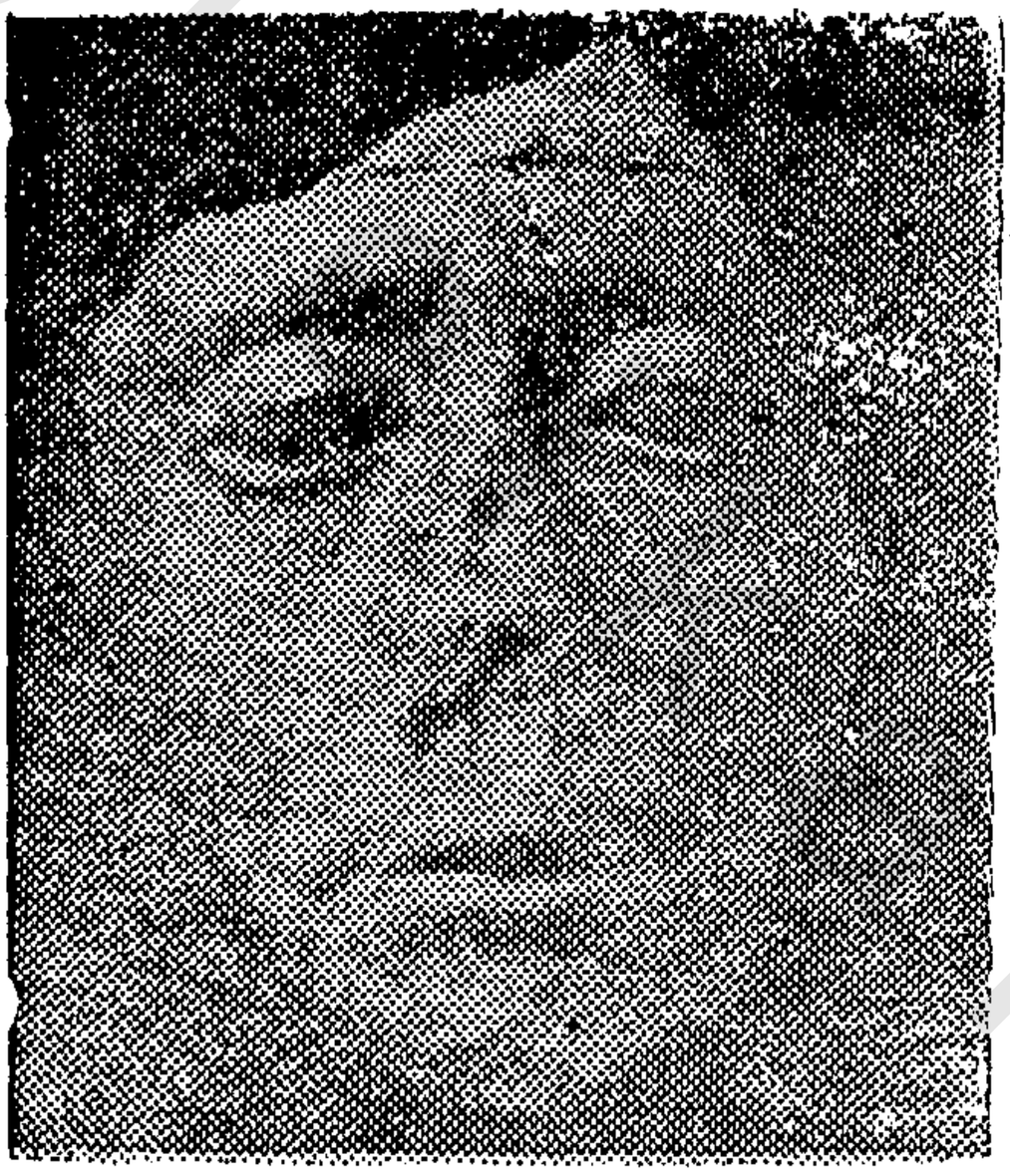

شكل (١٥) رأس من حجر الحرسان وجد فى مصنع المثال تحتمس فى تل العمارنة وهو الآن فى متحف الدولة ببرلين

شكل (١٦) رأس ملك لعله سنوسريت الثالث فى المتحف الفنى بنيويورك

فجثم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً فى تدهوره . فلما أن تولى الحكم ملوك الأسرة الثانية عشرة الأقوياء عادت الروح الدنيوية غير الدينية إلى الظهور وأثبتت وجودها ، واستعاد الفن شيئاً من قوته القديمة ، وفاق الفنانون ما كان عليه أسلافهم الأولون من براعة . ويوحى رأس أمنمحيت الثالث المنحوت من حجر الديوريت[١٩٧] ببعث جديد للفن وبعث للأخلاق . ذلك أن الناظر إلى هذا الرأس يستشف منه صلابة هذا المليك القدير ، ويدرك أن الذى نحته فنان قدير أيضاً . وثمة تمثال ضخم لسنوسريت الثالث يزينه رأس ووجه لا تقل الفكرة التى أوحت به ، ولا القدرة التى أخرجته ، عما أوحت به وأخرجته

أية صورة أخرى فى تاريخ فن النحت كله ، وإن الجذع الباقى من تمثال سنوسريت الأول فى متحف القاهرة ليضارع جذع تمثال هرقول في متحف اللوفر . وتكثر تماثيل الحيوانات فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى ، وهى كلها تفيض بالحياة ، فهنا تجد فأراً يمضغ بندقة ، وهناك نرى قرداً يضرب على وتر ويكشف عن كل ما لديه من مهارة فى هذا الضرب ، أو قنفذاً ليس فى أشواكه كلها شوكة غير منتفشة . ثم جاء ملوك الهكسوس وانعدم الفن المصرى إلا قليلا مدى ثلاثة قرون .

شكل (١٧) الصقر الملكى والأفعى نقش فى حجر الجير من الأسرة الأولى فى متحف اللوفر

شكل (١٨) رأس تحتمس الثالث فى متحف القاهرة

ويبعث الفن بعثاً ثانياً على ضفاف النيل فى حكم حتشبسوت وتحتمس

وأمنحوتب ومن تسمى باسميهما من الملوك . ذلك أن الثروة أخذت تتدفق على مصر من سوريا ، وتحول مجراها إلى الهياكل وقصور الملوك ، وتقطرت منها لتغذى الفنون عن اختلاف أنواعها ، وقامت تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى تناطح السماء ، وغصَّت أركان الهياكل كلها بمختلف التماثيل ، وكثرت روائع الفن كثرة لم يسبق لها مثيل على أيدى هذا الشعب الذى تملكته نشوة بعثها فيه ما بلغه فى زعمه من سيادة على العالم بأسره . وإن التمثال النصفى لتلك الملكة العظيمة المنحوت من الحجر الأعبل والمحفوظ فى المتحف الفنى بنيويوك ، وتمثال تحتمس الثالث المصنوع من البازلت والمحفوظ فى متحف القاهرة ، وتماثيل أبى الهول المصنوعة فى عهد أمنحوتب الثالث والمحفوظة فى المتحف البريطانى ، وتمثال إخناتون الجالس المصنوع من حجر الجير والمحفوظ فى متحف اللوفر ، وتمثال رمسيس الثانى المنحوت من الحجر الأعهل والمحفوظ فى تورين ، وتمثال هذا الملك نفسه الجاثم وهو يقدم القربان للآلهة جثوماً لا يكاد يصدق الإنسان أنه يفعله ، والذى مثل الجثوم أكمل تمثيل[١٩٩] ، والبقرة المفكرة فى الدير البحرى التى يرى مسبيرو « أنها تضارع أروع آيات الفن اليونانى والرومانى المماثلة لها »[٢٠٠] وأسدَىْ أمنحوتب الثالث اللذين قال عنهما رسكن إنهما أحسن ما خلفه القدماء على بكرة أبيهم من تماثيل للحيوانات[٢٠١] ، والتماثيل الضخمة التى صنعها فى الصخر عند أبى سمبل مثالو رمسيس الثانى ، والآثار العجيبة الرائعة التى وجدت فى خرائب مَنْحتِ الفنان تحتمس فى تل العمارنة — والتى تشـــمل نموذجاً من الجبس لرأس إخناتون ينطق بما كان هذا العهد الملىء بالمآسى من نزعة شعرية وتصوفية — والتمثال النصفى الجميل المصنوع من حجر الجير لنفرتيتى زوجة الملك إخناتون ، ورأس هذه الملكة الجميلة المصنوع من حجر الخراسان وهو أجمل من التمثال النصفى السالف الذكر[٢٠٢] ، هذه الأمثلة المنتشرة فى بلاد العالم تصور للقارئ صورة من أعمال النحت الكثيرة الرائعة التى يفيض بها عصر

الإمبراطورية . ولم تفقد الفكاهة منزلتها بين هذه الروائع الفنية العظيمة ، فالمثالون المصريون يلهون بالتماثيل الهزلية المضحكة للإنسان والحيوان ، وحتى تماثيل الملوك فى عصر إخناتون محطم الأصنام قد جعلها الفنان المصرى تبتسم وتلعب(*) .

شكل (١٩) رمسيس الثانى يقرب قربانا

صورة تمثال فى متحف القاهرة

على أن جذوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثانى وظل الفن المصرى من بعده قروناً كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة . وحاول الفن أن ينهض من كبوته فى عهد ملوك ساو ، وأن يعود إلى ما كان ينزع إليه كبار الفنانين فى عهد الدولة القديمة من إخلاص وبساطة فى التصوير . وقد عالج المثالون فى عهدهذه الدولة أقسى الحجارة كأحجار البازلت والسربنتين (الحية) والبريشيا والديوريت — ونحتوا منها تماثيل واقعية حية نذكر منها تمثال منتيوميحيت(٢٠٣) ورأسا أصلع من البازلت الأخضر لايعرف صاحبه يطل الآن على جدران متحف الدولة فى برلين . ومما صنعوه من البرنز صورة جميلة للسيدة تكوسشت(٢٠٤) ، وقد أولعوا أيضاً بتصوير ملامح الناس والحيوان وحركاتهم على حقيقتها ، فنحتوا تماثيل مضحكة لحيوانات غريبة ،

(*) وإن المرء ليذكر بهذه المناسبة ما قاله سياسى مصرى بعد زيارته معارض أوربا « لقد انتهتم بلادى » .

ولعبيد وآلهة ، وصنعوا من البرنز رأسى قطة وعنزة هما الآن من منهوبات برلين(٢٠٥) . ثم انقض الفرس بعدئذ على البلاد انقضاض الذئاب الكاسرة على الحملان الوديعة المسالمة ، ففتحوا مصر وخربوا الهياكل وكبتوا روح البلاد وقضوا على فنونها .

شكل (٢١) تمثال منتيوميحيت الجالس
فى متحف الدولة ببرلين

شكل (٢٠) تمثال من البرنز
لندوبشت فى متحف أثينة

والعمارة والنحت(*) أهم الفنون المصرية ، ولكنا إذا أدخلنا الوفرة فى حسابنا كان علينا أن نضيف إليهما النقوش البارزة . فليس من شعوب العالم شعب جد فى حفر تاريخه وأساطيره كما جد فى ذلك قدماء المصريين . وإنا ليدهشنا لأول وهلة ما بين القصص المنقوشة على الحجارة الكريمة من تشابه ممل ، كما يدهشنا ازدحامها وكثرتها ، وما فيها من انعدام التماثل وعدم مراعاة قواعد المنظور ، أو المحاولات غير الموفقة التى بذلوها لمراعاتها بتمثيل الأشياء البعيدة فى المنظر فوق القريبة ؛ ونحن ندهش حين نرى طول قامة الملك وقصر قامة أعدائه . هذا فى النقش والتصوير ، وفى النحت يصعب علينا أن نألف رؤية عيون وصدور مرسومة كأنما ننظر إليها من الأمام على حين أن الأنوف والذقون والأقدام مرسومة كأنما ننظر إليها من أحد الجانبين — ولكننا فى مقابل هذا يَرُوعنا جمال الباشق والأفعى المنقوشين على قبر الملك ونيفيس(٢٠٦) ، ونقوش الملك زوسر الجيرية على هرم سقارة المدرج ، ونقوش الأمير هزيريه الخشبية التى استخرجت من قبره فى هذا الموضع نفسه(٢٠٧) . وصورة اللوبى الجريح المحفورة على قبر من قبور الأسرة الخامسة فى أبى صير(٢٠٨) . وهى دراسة دقيقة لعضلات الجسم المتوترة من شدة الألم . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نتأمل فى أناة وهدوء النقوش الطويلة التى تقص علينا كيف اجتاح تحتمس الثالث ورمسيس الثانى فى حروبهما كل ما اعترض سبيلهما ، وندرك روعة النقوش التى حفرت لسيتى الأول فى العرابة وفى الكرنك ، ونتبين ما بلغته من كمال ، ونتتبع بعظيم الشوق واللذة النقوش المحفورة على جدران معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى ، والتى يقص علينا ناقشوها قصة البعثة التى أرسلتها هذه الملكة إلى أرض بنت المجهولة (ولعلها بلاد الصومال) . وفى هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى

(*) سنقصر كلمة النحت فى هذا الكتاب على النحت المدور كالتماثيل ، أما ما كان محفوراً على شىء آخر صوراً كان أو كتابة فسنطلق عليه اسم النقوش — البارزة أو القليلة البروز .

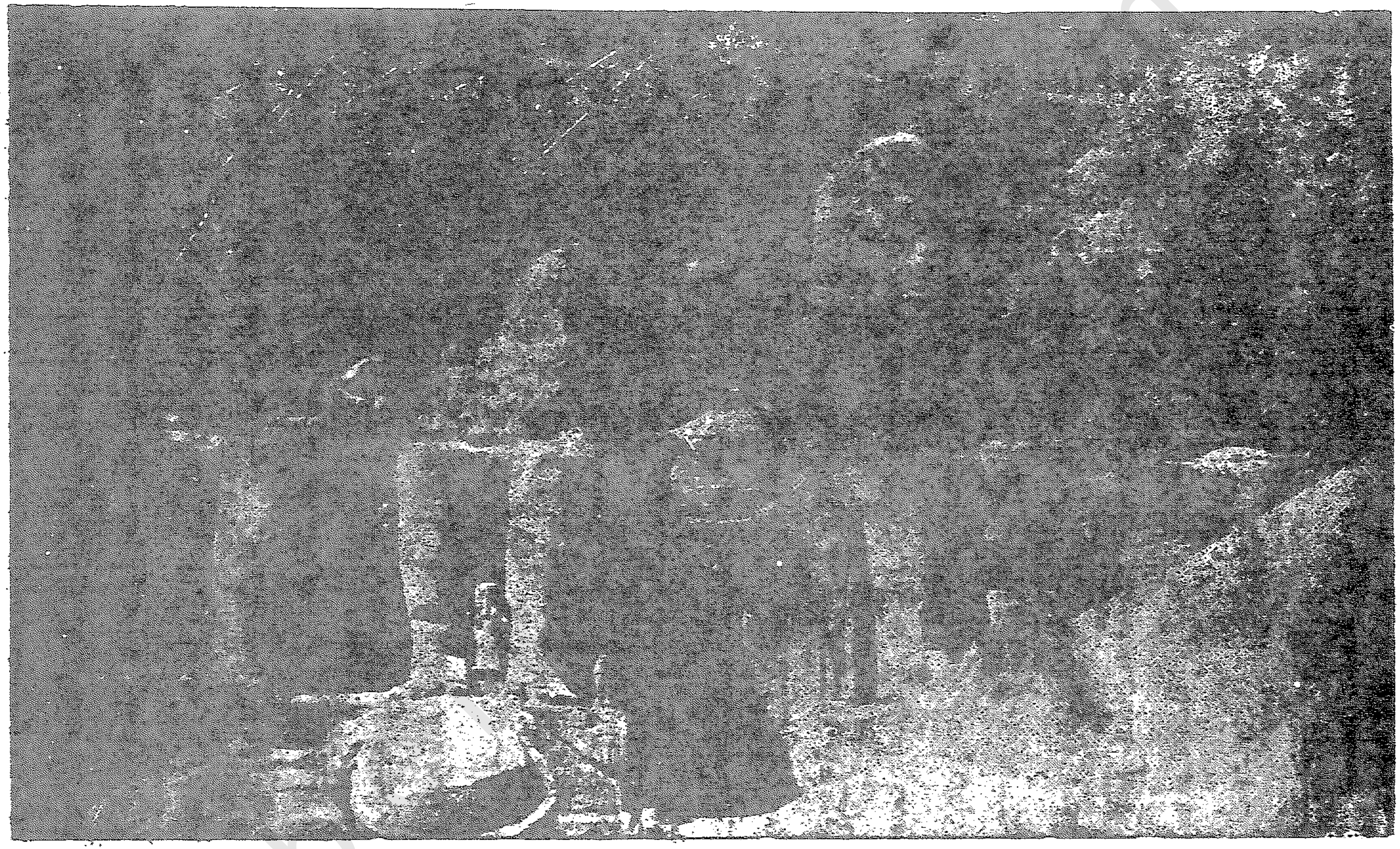

شكل (٢٢) تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى مع تماثيل الملكة نفر تمرع
بالحجم الطبيعى فى معبد أبى سمبل

البلوبيه بجاذيفها المصفوفة ، وتعبر المياه المملوءة بحيوان الأخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها من دواب البحر ، ونرى الأسطول يصل إلى شواطئ « پنت » ويرحب به شعب البلاد ومليكها ، وهم ذاهلون ولكنهم مفتتنون . ونرى الملاحين يأتون إلى السفن بآلاف من ضروب المأكولات الشهية ؛ ونقرأ فكاهة العامل البنّى فى قوله : — « إياك أن تزل قدماك أيها الواقف هنا ؛ كن على حذر ! » ثم نصحب السفائن الموقرة بأحمالها وهى عائدة نحو الشمال مملوءة (كما يقول النقش) بعجائب أرض پنت ، من ذهب ، وأخشاب مختلفة الأنواع ، وأدهان للعيون ، وقردة ، وكلاب ، وجلود نمورة . . . مما لم يُعهد به أحد الملك من الملوك منذ بداية العالم . وتخترق السفن القناة العظيمة بين البحر الأحمر والنيل ، ونرى البعثة ترسو سفنها فى أحواض طيبة ، وتفرغ ما فيها من بضائع مختلفة عند قدمى الملكة . ثم نبصر آخر الأمر ، كأنما قد مضى على وصولها بعض الوقت ، كل هذه السلع

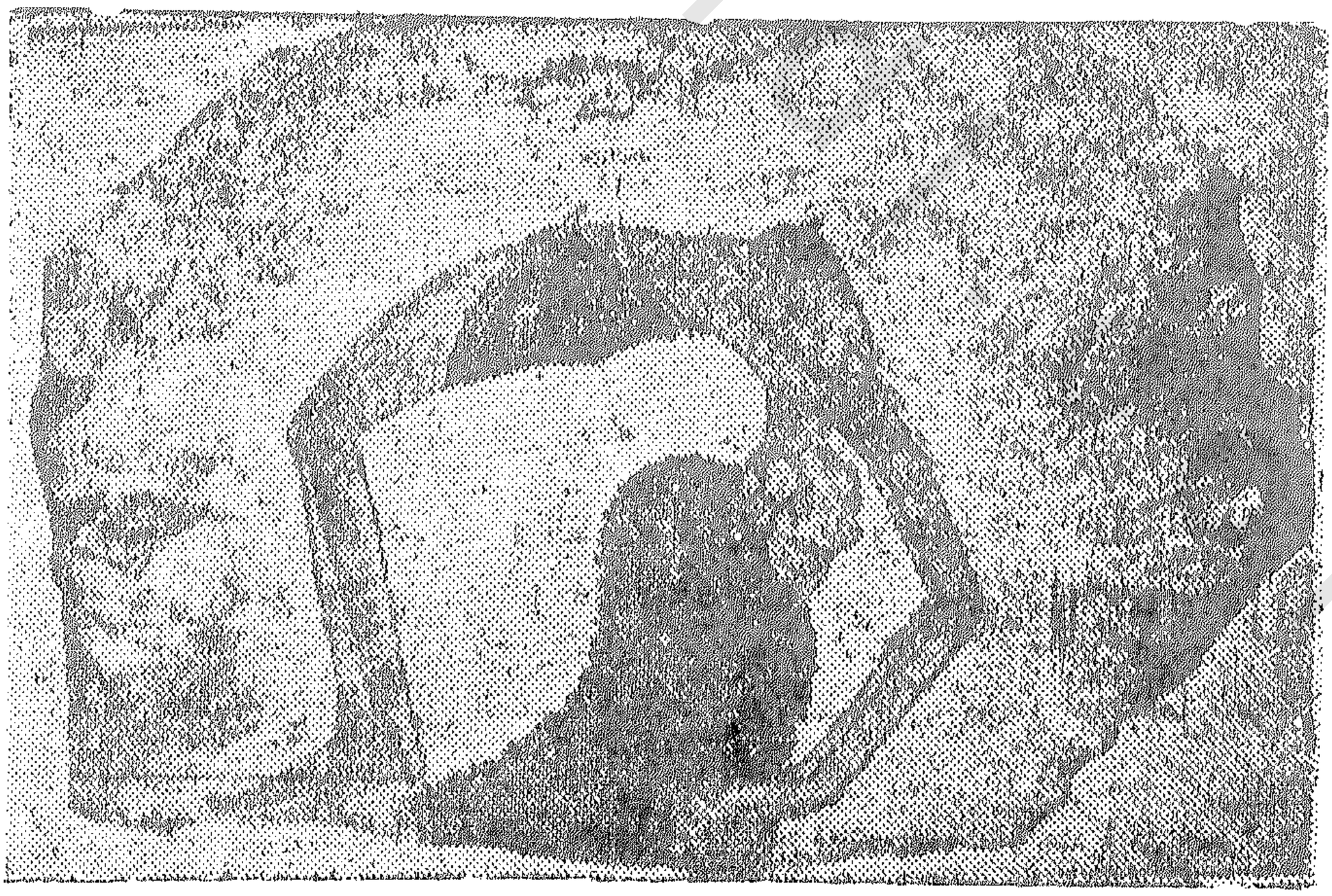

شكل (٢٣) الراقصة

صورة فى متحف تورين بإيطاليا

المستوردة تزين مصر . فنى كل ناحية حلى من ذهب وأبنوس وصناديق عطور وأدهان وأسنان فيلة وجلود حيوان ؛ والأشجار التى جىء بها من بنت وكأنها قد أينعت فى أرض مصر كما كانت فى بلادها الأصلية حتى كانت النيران تتفيأ ظلال أغصانها . إن هذا النقش بلا ريب لمن أعظم النقوش فى تاريخ الفن(٢٠٩)(*) .

والنقش البارز هو همزة الوصل بين النحت والرسم بالألوان . على أن الرسم الملون لم يرق فى مصر إلى منزلة الفن المستقل إلا فى عهد البطالمة وبتأثير بلاد اليونان ، أما فيما عدا ذلك العهد فقد كان فناً ثانوياً تابعاً لفنون العمارة والنحت والنقش — وكان عمل الرسام هو ملء الخطوط الخارجية التى حفرتها عُدد غيره من الفنانين ؛ ولكنه كان رغم منزلته الثانوية واسع الانتشار يراه الإنسان أينما حل ، فقد كانت معظم التماثيل تدهن ، والسطوح كلها تلون . وإذ كان هذا الفن سريع التأثر بالزمن ينقصه ثبات فنى النحت والبناء ، فإنا لا نكاد نجـــد الآن من الرسوم الملونة التى أخرجها رجال الدولة القديمة إلا صورة رائعة لست إوزّات أخرجت من قبر فى ميدوم(٢١٠) ، ولكننا يحق لنا أن نستنتج من هذه الصورة وحدها أن هذا الفن أيضاً قد بلغ فى عصر الأسر الأولى مبلغاً يدنيه من الكمال . فإذا انتقلنا إلى عهد الدولة الوسطى وجدنا رسوماً بالألوان المائية(**) فى قبرى أمينى وخنوحوتب ببنى حسن ، وهى تزين القبرين زينة جميلة تبعث فى الناظر إليها السرور والبهجة ، كما أن صورة « الظباء والزراع(٢١١) وصورة « القطة ترقب فريستها »(٢١٢) لتعدان من أروع الأمثلة لهذا الفن . وقد تنبه الفنان فى هاتين الصورتين أيضاً إلى العنصر الرئيسى فى التصوير ، وهو أن يجعل من

(*) ونرى نموذجاً منقولا عن هذا النقش فى الحجرة المصرية الثانية عشرة من حجرات متحف الفنون بمدينة نيويورك .

(**) وكانت الألوان التى ترسم بها هذه الصور تخلط بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض .

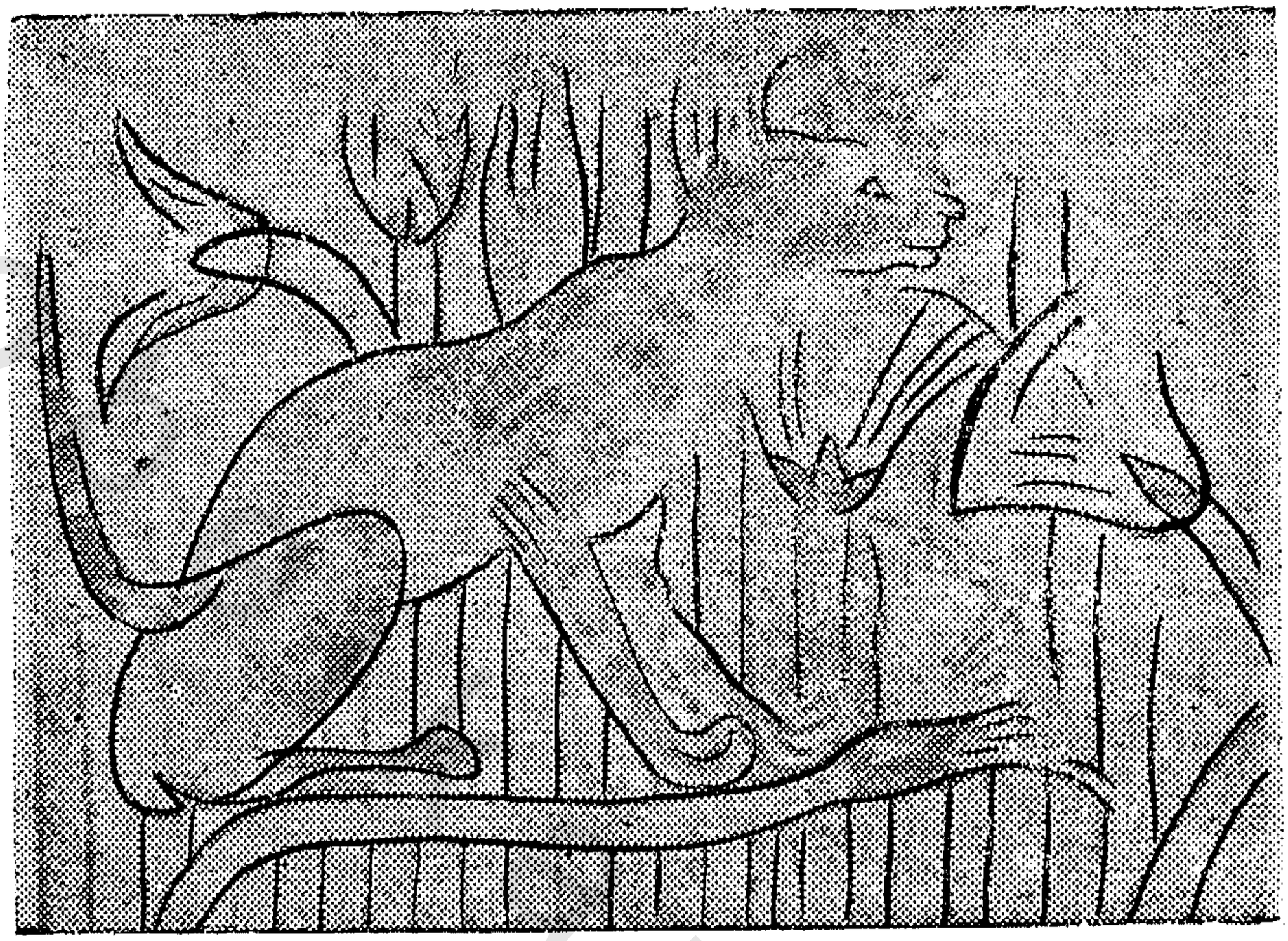

شكل (٢٤) قطة ترقب فريستها
صورة ملونة على جدار قبر خنمحوتب فى بنى حسن

رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش . فلما كان عصر الإمبراطورية غصت القبور بالرسوم المونة ، وكان الفنان المصرى قد توصل إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه فى استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة المنتعشة فى الحقول المشمسة على جدران المنازل والهياكل والقصور والمقابر وعلى ســـقوفها كلها ، فصور عليها طيوراً تطير فى الهواء ، وسمكا يسبح فى الماء ، وحيواناً يعيش فى الآجام ، وصورها كلها فى بيئاتها التى تعيش فيها . ونقش الأرض لتبدو كأنها برك شفافة ، وحاول أن يجعل السقف تضارع فى بهائها .ورونقها كواكب السماء ، وأحاط هذه الصور كلها بأشكال هندسية وأخرى مركّبة من أوراق الشجر تتفاوت من أبســـط الرسوم الهادئة إلى أعقدها وأكثرها فتنة(٢١٣) . « فصورة الفتاة الراقصـــة »(٢١٤) وفيها أكبر قسط من قوة

الابتداع وروح الفن ، و « صيد الطيور فى قارب »(٢١٥) ، والصورة المرسومة بالمغرة والتى تمثل الفتاة الجميلة العارية بين الموسيقيين فى قبر نحت بطيبة(٢١٦) ؛ كل هذه نماذج متفرقة من سكان القبور المصورين ، ونلاحظ فى هذه الرسوم كما لاحظنا فى النقوش البارزة أن الخطوط جميلة ، ولكن التركيب ضعيف ، وأن المشتركين فى عمل واحد يمثلون متفرقين(٢١٧) واحداً بعد واحد وهم الذين يجب أن يمثلوا مختلطين . ونرى الرسام هنا يفضل أن يضع أجزاء الصورة بعضها على بعض بدل أن يراعى فى وضعها قواعد المنظور ، على أن الجمود الناشئ عن المحافظة على القواعد الشكلية وعلى التقاليد فى فن النحت المصرى كان هو السائد فى ذلك الوقت ، ولذلك لا يكشف لنا هذا الفن عن الفكاهة الباعثة على البهجة ، أو عن الواقعية ، وهما الصفتان اللتان يمتاز بهما فن النحت فيما بعد ذلك العصر ، ولكن الصور كلها تسرى فيها مع ذلك جدة فى التفكير ، ويسر فى رسم الخطوط وفى التنفيذ ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها ، وغزارة فى اللون والزينة تبعث فى النفوس البهجة ، وتجعل الصور متعة للعين والروح . وملاك القول أن فن الرسم المصرى — رغم ما فيه من عيوب — لم يسبقه فن مثله فى أية حضارة شرقية إلا فى عصر الأسر الوسطى فى بلاد الصين .

أما الفنون الصغرى فكانت أعظم الفنون فى مصر : ذلك أن الحذق والجد اللذين شيدا الكرنك والأهرام ، واللذين ملأ الهياكل بتماثيل الحجارة ، قد انصرفا أيضاً إلى تجميل المنازل من داخلها ، وتزيين الأجسام ، وابتكار جميع متع الحياة ونعمها . فالنساجون قد صنعوا الطنافس والقماش المزركش الذى يزين الجدران ، والوسائد الغنية بألوانها والرقيقة فى نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل ، وانتقلت الرسوم التى ابتدعوها منهم إلى سوريا ولا تزال منتشرة فيها إلى هذه الأيام . ولقد كشفت مخلفات توت عنخ أمون عما كان عليه أثاث قدماء المصريين من ترف عجيب ، وعما بلغته كل قطعة وكل جزء من قطعه من صقل بديع ، سواء فى ذلك

كراسيه المكسوة بالفضة والذهب البراقين ، والسرر ذات الرسوم الفخمة والصناعة الدقيقة ، وصناديق الجواهر وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش ،

شكل (٢٥) كرسى توت عنخ أمون
فى متحف القاهرة

والمزهريات التى لا تضارعها إلا مزهريات الصين . وكانت موائدهم تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرنز وكئوساً من البللور ، وجفاناً براقة من حجر الديوريت صقلت ورقت حتى كاد الضوء ينفذ من خلال جدرانها الحجرية . وإن ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون من آنية المرمر ، وما عثر عليه المنقبون فى خرائب بيت أمنحوتب الثالث فى طيبة من أقداح على هيئة الإزورد (اللوطس) ومن طاسات الشراب ، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من مستوى رفيع . وآخر ما نذكره من هذا جواهر الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وقد كان لهذين العهدين من الحلل الثمينة الكثيرة ما لا يكاد يفوقه شىء فى جمال الشكل ودقة الصنع . وتشمل المجاميع الباقية من تلك الأيام قلائد ، وتيجاناً ، وخواتم ، وأساور ، ومرايا ، وحليات للصدر ، وسلاسل ، ورصائع ، صيغت من الذهب والفضة والعقيق والفلسپار واللازورد والجمست ، وكل ما نعرفه من الحجارة الكريمة . وكان سراة المصريين كسراة اليابانيين يسرهم جمال ما يحيط بهم من التحف الصغيرة ، فكان كل مربع صغير من العاج فى علب حليهم ينقش ويزين أجمل زينة وأدقها . لقد كانوا يلبسون أبسط الملابس ، ولكنهم كانوا ينعمون بأحسن عيشة ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم اليومى يمتعون أنفسهم بنغمات الموسيقى الهادئة الشجية على العود(*) والقيثارة والصلاصل والناى . وكان للهياكل والقصور فرق من العازفين والمغنين ، وكان من موظفى قصر الملك « مشرف على الغناء » يقوم بتنظيم العازفين والموسيقيين الذين يسلون الملك . وليس لدينا ما يدل على وجود علامات موسيقية فى مصر ، ولكن هذا قد يكون مجرد نقص فيما كشف من آثار المصريين . وكان استنفرو نفر ، وريمرى بتاح نابغتى الغناء فى أيامهما ، وإنا لنستمع من خلال القرون الطويلة صوتهما

(*) وكان العود يصنع من عذد قليل من الأوتار تمتد على لوحة ضيقة رنانة . أما الصلاصل فكانت طائفة من الأقراص الصغيرة تهتز على أسلاك .

وهما يناديان بأنهما كانا « يجيبان كل رغبة من رغبات الملك بغنائهما الشجى »(٢١٨)

شكل (٢٦) رأس نفرتيتى
فى متحف الدولة ببرلين

ومن الأمور الشاذة غير المألوفة أن يبقى اسما هذين الفنانين ، وذلك لأن الفنانين الذين خلدوا بجهودهم ذكريات الأمراء والقساوسة والملوك أو ملامحهم لم يكن لديهم من الوسائل ما ينقلون به ذكرهم إلى من يجيء بعدهم ، وإن كنا نسمع بإمحوتب مهندس عهد زوسر ، وهو رجل يكاد أن يكون اسمه أسطورة من الأساطير القديمة ، ونسمع عن إنيني الذى أعد رسوم المبانى العظيمة أمثال معبد الدير البحرى لتحتمس الأول ، وعن بويمر ، وحبوسنب وستموت الذين شادوا المبانى العظيمة للملكة حتشبسوت(*) ؛ وعن الفنان تحتمس الذى كشف فى بقايا مرسمه كثير من روائع الفن ، وعن بك المثال الفخور الذى يقول لنا إنه لولاه لعفى على اسم إخناتون الزمان(٢٢١) . وكان لأمنحوتب الثالث مهندس معمارى يسمى أيضاً أمنحوتب بن حابو ، وكان الملك يضع تحت تصرف هذا المهندس الموهوب ثروة يخطئها الحصر ، وذاع اسم هذا الفنان الشهير حتى عبدته مصر فيما بعد واتخذته إلها من آلهتها . لكن الفنانين على الرغم من هذا كانوا يعملون وهم فقراء مغمورون . ولم تكن لهم عند القساوسة والكبراء الذين يستخدمونهم مكانة أسمى من مكانة الصناع أو أرباب الحرف العاديين .

ولقد تعاون الدين المصرى مع الثروة المصرية على الإيحاء بالفن وإنمائه ، وتعاون مع غنى مصر وضياع إمبراطوريتها على إماتته . لقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ، ويوحى إليهم بروائع فنهم ، ولكنه فرض عليهم من العرف والقيود ما شده إلى الكنيسة بأقوى الروابط . فلما أن مات بين الفنانين الدين الخالص ، ماتت بموته الفنون التى كانت تعيش على هذا الدين . تلك هى المأساة التى لا تكاد تنجو من شرها أية مدنية — وهى أن روحها فى عقيدتها ، وأن هذه الروح قلما تبقى بعد فناء فلسفتها .

(*) لقد كان ستموت يلقى من ملوكه من ضروب التعظيم ما أنطقه بقوله : « لقد كنت أعظم العظماء فى العالم كله » . وكانت هذه عقيدة شائعة ولكنها لم تكن دائماً ينطق بها .

١٠ — الفلسفة

« تعاليم بتاح حوتب » — « تحذيرات إيبور » —
« محاورات كاره المجتمع » — أسفار الحكمة المصرية

لقد اعتاد مؤرخو الفلسفة أن يبدأوا قصتهم باليونان ، وإن الهنود الذين يعتقدون أنهم مخترعو الفلسفة ، والصينيين الذين يعتقدون أنهم بلغوا بها حد الكمال ، إن هؤلاء وأولئك يسخرون من ضيق عقولنا وتعصبنا . ولعلنا كلنا مخطئون فى ظننا ، لأننا نجد بين أقدم القطع المتناثرة التى خلفها لنا المصريون الأقدمون كتابات تمت بصلة بعيدة إلى الفلسفة الأخلاقية . ولقد كانت حكمة المصريين مضرب المثل عند اليونان الذين كانوا يعتقدون أنهم أطفال بالقياس إلى هذا الشعب القديم(٢٢٢) . وأقدم ما لدينا من المؤلفات الفلسفية « تعاليم بتاح حوتب » ، وتاريخه يرجع فيما يبدو لنا إلى عام ٢٨٠٠ ق . م أى إلى ما قبل كنفوشيوش وسقراط وبوذا بألفى عام وثلثمائة(٢٢٣) . وكان بتاح حوتب هذا حاكماً على منف وكبير وزراء الملك فى أيام الأسرة الخامسة . فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوى على الحكمة الخالدة : ثم نقل بعض العلماء المصريين قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة هذا الكتاب باعتباره من أمهات كتب القدماء . ويقول الوزير فى كتابه :

« أى مولاى الأمير ، إن الحياة تقترب من آخرها ، ولقد حل بى الضعف وعدت إلى مرحلة الطفولة الثانية ، والمسن يلاقى البؤس فى كل يوم من أيامه . فعيناه صغيرتان ، وأذناه لا تستمعان ، ونشاطه يقل ، وقلبه لا يعرف الراحة . . . فمر خادمك إذن أن يخلع سلطانى الواسع على ولدى ، واسمح لى أن أحدثه بألفاظ الذين يستمعون إلى رجال الأيام الغابرة ، أولئك الذين استمعوا إلى الآلهة فى يوم من الأيام . أتوسل إليك أن تسمح بأن يُفعل هذا » .

ويتفضل جلالة الملك فيأذن له ولكنه مع ذلك ينصحه بأن « يتحدث دون

أن يبعث الملل » فى نفس سامعيه ، وهى نصيحة ليست إلى الآن عديمة النفع للفلاسفة . فلما أذن له أخذ بتاح حوتب ينصح ولده بقوله :

« لا تزه بنفسك لأنك عالم ، بل تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى الحكيم ، لأن الحذق لا حد له ، كما أن الصانع لا يبلغ حد الكمال فى حذق صناعته ؛ والكلام الجميل أندر من الزمرد الذى تعثر عليه بين الحصا . . . فعش إذن فى بيت اللطف يقبل عليك الناس طائعين ويقدموا لك الهدايا . . واحذر أن تخلق لنفسك الأعداء بأقوالك . . . ولا تتخط الحق ولا تكرر ما قاله إنسان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب الناس له ، لأن ذلك بغيض إلى النفس . . .

« وإذا أردت أن تكون حكيما ، فليولد لك ولد لتسر بذلك الإله . . . فإذا سار فى سبيله مقتدياً بك ، وإذا نظم أمورك على أحسن وجه ، فقدم له كل الخير . . . أما إذا كان عديم المبالاة ، وخالف قواعد السلوك الطيب ، وكان عنيفاً ؛ وإذا كان كل ما يخرج من فيه هو فحش القول ، فاضربه ، حتى يكون حديثه صالحاً . . . وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شىء لا ينسى قط . . .

« وحيثما ذهبت فاحذر الاتصال بالنساء . . . وإذا شئت أن تكون حكيما فمون بيتك وأحب زوجك التى بين ذراعيك . . . واعلم أن السكوت أنفع لك من كثرة الكلام . وفكر فى أنك قد يعارضك خبير ممن يتحدثون فى المجلس ، ولذلك كان من السخف أن تتكلم فى كل نوع من أنواع العمل . . .

« وإذا كنت ذا سلطان فاسع لأن تنال الشرف عن طريق العلم ورقة الطباع . . . واحذر أن تقاطع الناس ، وأن تجيب عن الأقوال بحرارة ، أبعد ذلك عنك ، وسيطر على نفسك »

ويختم بتاح حوتب نصائحه بهذه العبارة المليئة بالفخر والإعجاب :

« لن يمحى من هذه البلاد إلى أبد الدهر لفظ، ن الألفاظ المدونة هنا ، ولكنها ستتخذ نماذج وسيتحدث عنها الأمراء أحسن الحديث : . . إن كلماتي ستعلم الرجل كيف يتحدث » . . . أجل إنه سيصبح إنساناً حاذقاً فى الطاعة بارعاً فى الحديث ، وسيصيبه الحظ الحسن ؛ . . . وسيكون ظريفاً إلى آخر أيام حياته ، وسيكون راضياً على الدوام »(٢٢٤) .

ولكن هذه النغمة السارة المستبشرة لا تدوم فى التفكير المصرى ، بل تسرع إليها الشيخوخة فتداهمها وتحيلها إلى نكد وكآبة . ويأتى حكيم آخر هو إبوور فيندب ما فى البلاد من خلل واضطراب وعنف وقحط وانحلال يكتنف أخريات أيام الدولة القديمة ، ويتحدث عن المتشككين الذين « يقربون القرابين إذا عرفوا مكان الإله » ويعلق على ازدياد حوادث الانتحار ويقول كما قال شوبنهور من بعده : « ألا ليت الناس يقضى عليهم حتى لا يكون فى الأرض حمل ولا ولادة ، ألا ليت الأرض ينقطع منها الضجيج ويبطل منها النزاع » — وواضح من هذه الأقوال أن إبوور كان قد شاخ وملّ الحياة ، وهو يحلم فى آخر أيامه بملك — فيلسوف ينجى الناس من الفوضى والظلم :

« يُبَرِّد لهيب (الحريق الاجتماعى ؟) ويقال إنه راعى الناس جميعاً قلبه خال من الشر ، فإذا كانت قطعانه قليلة العدد قضى يومه فى جمعها ، لأن قلوبها محمومة . ألا ليته قد تبين أخلاقهم منذ الجيل الأول ! إذن لقضى على الشر ، ولمد ذرَاعه لمقاومته ، ولسحق بذرته وما يخرج منها . . . أين هو اليوم ؟ هل هو نائم بالصدفة ؟ أنظروا إن قوته لا ترى(٢٢٥) » .

هذه هى أصوات الأنبياء فى العهد القديم ، وقد صيغت سطورها صياغة الأمثال والحكم ككتابات أنبياء اليهود ؛ ويقول برستد وقوله الحق « إن هذه التحذيرات هى أقدم ما ظهر فى العالم من المثل العليا الاجتماعية التى يطلق عليها

عند العبرانيين اسم المسيحية(٢٢٦)(*) . وثمة ملف من أيام الدولة الوسطى يندد بما فى ذلك العهد من فساد بعبارات يكاد الإنسان يسمعها فى كل جيل :

لمن أتحدث اليوم ؟
الإخوة أشرار
وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب .
لمن أتحدث اليوم ؟
القلوب قلوب لصوص
وكل رجل يغتصب ما عند جاره .
لمن أتحدث اليوم ؟
إن الرجل اللطيف يهلك
والصفيق الوجه يسير فى كل مكان . . .
لمن أتحدث اليوم ؟
إذا ما أثار الإنسان الغضب بسوء مسلكه .
فإنه يدفع كل الناس إلى الضحك ، وإن كان إثمه خبيثاً . . .

ثم ينطلق هذا الشاعر المصرى الشبيه بالشاعر سونبرن الإنجليزى فى مدح الموت فيقول :

الموت أمامى اليوم
كشفاء الرجل المريض ،
كالخروج إلى حديقة بعد المرض .

* * *

الموت أمامى اليوم
كشذا المر ،

(*) العقيدة القائلة بأن رسولا سيرسل إلى الأرض ليطهرها مما فيها من فساد وظلم . (المترجم)

أو كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف ؛
الموت أمامى اليوم
كرائحة أزهار الإزورد
كالجلوس على شواطئ السكر .
الموت أمامى اليوم
كتدفق السيل الجارف ،
كرجوع الرجل من سفينة حربية إلى بيته . . .
الموت أمامى اليوم
كاشتياق الرجل إلى رؤية موطنه
بعد أن قضى السنين فى الأسر(٢٢٧) .

وأشد من هذا كآبة قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة فى متحف ليدن يرجع تاريخها إلى ٢٢٠٠ ق . م ، وهى تضرب على النغمة المألوفة نغمة تمتع بيومك :

لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف
وهى ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .
انظر إلى مكانيهما
إن جدرانهما قد جردت
ومواضعهما قد اندثرت ؛
كأن لم تغن بالأمس ؛

* * *

إن أحداً لا يأتى من هناك
ليحدثنا عما حل بهما . . .
حتى يرضى قلوبنا ،
إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذى ذهبا إليه
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
ما دمت حياً ترزق .
وضع المر على رأسك ،
والبس على جسمك نسج التيل اللطيف ،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة . الحقة

* * *

وزد فى مباهجك أكثر من ذى قبل ،
ولا تترك قلبك يذبل ،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك ،
وهيئ أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت ،
حتى يأتيك يوم النحيب .
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم ،
وحين لا يصغى من فى القبور إلى حزنهم ،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك(٢٢٨)

ولعل هذا التشاؤم وذاك التشكك كانا نتيجة لتحطيم روح أمة أخضعها الغزاة الهكسوس وأذلوها ، وشأنهما فى مصر كشأن الرواقية والأبيقورية عند

اليونان المهزومين المستعبدين(*) ؛ وهذه الكتابات تمثل فيما تمثل إحدى الفترات التى يغلب فيها التفكير زمناً ما على العقيدة ، والا لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون ولماذا يعيشون ، وهى فترات تتوسط عندنا اليوم عهدين تسود كليهما مبادئ خلقية غير التى تسود العهد الآخر ؛ وتلك الفترات الوسطى لا تدوم ، لأن الأمل سرعان ما يتغلب على التفكير ، فتنحط القوة المفكرة إلى مكانها الوضيع المألوف ، ويرتفع منار الدين فيوحى إلى الناس بذلك الباعث الخيالى الذى لا غنى لهم عنه فى حياتهم وأعمالهم . وليس لنا أن نظن أن هذه القصائد تعبر عن آراء طائفة كثيرة من المصريين ، بل ينبغى أن نعتقد أنه كان من وراء الأقلية الصغيرة النشيطة الحية التى كانت تفكر فى مسائل الموت والحياة بعبارات دنيوية طبيعية ، نقول إنه كان من وراء هذه الأقلية ملايين من السذج ، رجالا كانوا أو نساء ، ظلوا أوفياء مخلصين لآلهتهم لا يشكون قط فى أن الحق سوف يسود ، وأن ما يقاسونه على ظهر الأرض من آلام وأحزان سوف يعرضون عنه بسخاء يوم يستقرون فى دار النعيم والسلام .

١١ — الدين

آلهة السماء — آلهة الشمس — آلهة الزرع — الآلهة الحيوانية — آلهة العلاقات الجنسية — الآلهة البشرية — أوزير — إيزيس وحورس — الآلهة الصغرى — الكهنة — عقيدة الخلود — « كتاب الموتى » — « الاعترافات السلبية » — السحر — الفساد .

لقد كان الدين فى مصر من فوق كل شىء ومن أسفل منه . فنحن نراه فيها فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله . من الطواطم إلى علم اللاهوت . ونرى أثره فى الأدب وفى نظام الحكم وفى الفن ، وفى كل شىء عدا الأخلاق . وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً غزير موفور.

(*) ويقول أبوور إن الحرب الأهلية لا تأتى بإيراد(٢٢٩) .

ولسنا نجد فى بلد من البلاد — إذا استثنينا بلاد الرومان والهند — ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر ، وليس فى وسعنا أن ندرس المصرى — بل ليس فى وسعنا أن ندرس الإنسان على الإطلاق — إلا إذا درسنا آلهته .

يقول المصرى إن بداية الخلق هى السماء ؛ وقد ظلت هى والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه . ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة ، فى اعتقاده ، مجرد أجرام ، بل كانت هى الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات — لم تكن متفقة على الدوام — توجه حركاتها المختلفة المعقدة(٢٣٦) ، وكانت السماء قبة تقف فى فضائها الواسع بقرة عظيمة هى الإلهة حتحور ، والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت للمصريين عقيدة أخرى (لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم إلى إقليم) تقول إن السماء هى الإله سيبو النائم فى لطف على الأرض ، وهى الإلهة نويت ، ومن تزاوج الربين المهولين ولدت كل الأشياء(٢٣٠) . ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة ، من ذلك أن ساحو وسيديت (أى كوكبى الجبار والشعرى) كانا إلهين مهولين ، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات فى اليوم بانتظام . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن إلها من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر ، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلاً ، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطرا الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى(٢٣١) . وعلى هـذا النحو كان عامة المصريين يفسرون خسوف القمر .

وكان القمر إلهاً ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ، ولكن الشمس فى الدين الرسمى كانت أعظم الآلهة . وكانت تعبد فى بعض الأحيان على أنها الإله الأعلى رع أو رى الأب اللامع الذى لقح الأم الأرض بأشعة الحرارة والضوء النافذة . وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس يولد مرة فى فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء فى قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب فى كل مساء كما

ينحدر الشيخ المسن مترنحاً إلى قبره ؛ أو أن الشمس كانت هى الإله حورس مصوراً فى صورة باشق رشيق يطير فى عظمة وجلال فى السماوات يوماً بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته . ولقد أصبح فيما بعد رمزاً متواتراً من الرموز الدينية والملكية . وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام . ولما أشرق أول مرة ورأى الأرض صحراء جرداء غمرها بأشعته فبعث فيها النشاط فخرجت من عيونه كل الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان — مختلطة بعضها ببعض . ولما كان أول من خُلق من الرجال والنساء أبناء رع الأدنين فقد كانوا مكملين سعداء . ولكن أبناءهم انحدروا شيئاً فشيئاً إلى طريق الضلال ، فخسروا ما كانوا عليه من سعادة وكمال . وغضب رع من أجل ذلك على خلقه ، فأهلك عدداً كبيراً من الجنس البشرى . على أن العلماء المصريين كانوا يشكون فى هذه العقائد الشعبية ويؤكدون (كما كان يؤكد بعض العلماء السومريين) أن الخلائق الأولين كانوا كالبهائم لا يستطيعون النطق بألفاظ مفهومة ، ولا يعرفون شيئاً من فنون الحياة(٢٢٢) . وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت فى جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر فى تقوى وصلاح عن اعتراف الإنسان بفضل الأرض والشمس .

وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة . فكانت بعض النباتات مقدسة لديهم ، فالنخلة التى تظلل الناس فى قلب الصحراء ، وعين الماء التى تسقيهم فى الواحة ، والغيضة التى يلتقون عندها ويستريحون ، والجميزة التى تترعرع ترعرعاً عجيباً فى الرمال ، كانت هذه عندهم ، لأسباب قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها عليهم ، أشياء مقدسة . ولقد ظل المصرى الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها قرابين الخيار والعنب والتين(٢٢٣) . ولم يكن هذا كل شىء بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها ، حتى لقد أخذ تين **Taine** يلهر بالتدليل على أن البصل

الذى أغضب بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل(٢٣٤) .

وكانت الآلهة من الحيوان أكثر ذيوعاً بين المصريين من آلهة النبات ، وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت بها هياكلها كأنها معرض حيوانات صاخبة . وعبد المصريون فى هذه المقاطعة أو تلك وفى هذا الوقت أو ذاك العجل والتمساح والصقر والبقرة والإوزّة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة والخطاف وابن آوى والأفعى ؛ وتركوا بعض هذه الدواب تجوس خلال الهياكل ولها من الحرية ما للبقرة المقدسة فى الهند حتى هذه الأيام(٢٣٥) . ولما تحولت الآلهة إلى آدميين ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها ، فكان أمون يمثل بإوزّة أو بكبش ، ورع يرمز له بصرصور أو عجل ، وأوزير بعجل أو كبش ، وسبك بتمساح ، وحورس بصقر أو بازى ، وحتحور ببقرة ، وتحوت إله الحكمة برباح(٢٣٦) . وكانت النساء يقدمن أحياناً لهذه الآلهة ليكنّ زوجات لهنّ ، وكان العجل — وهو الذى يتقمصه أوزير — صاحب هذا الشرف العظيم بنوع خاص . ويقول أفلوطرخس إن أجمل النساء فى منديس كنّ يقدّمن لمضاجعة التيس المقدس(٢٣٧) . وقد بقيت هذه الشعائر الدينية من بداية الأمر إلى نهايته عنصراً أساسياً قومياً فى الديانة المصرية . أما الآلهة من بنى الإنسان فقد جاءت إلى مصر فى وقت متأخر كثيراً ، ولعلها جاءتها هدايا من غرب آسية(٢٣٨) .

وكان المصريون يقدسون المعز والعجل تقديساً خاصاً ويعدونهما رمز القدرة الجنسية الخالقة . ولم يكونا مجرد رمزين لأوزير بل كانا تجسيداً له(٢٣٩) . وكثيراً ما كان أوزير يرسم وأعضاؤه التناسلية كبيرة بارزة دلالة على قوّته العظمى ، وكان المصريون فى المواكب الدينية يحملون له نماذج بهذه الصورة ، أو أخرى ذات ثلاثة قضبان . وكان النساء فى بعض المناسبات يحملن مثل هذه الصور الذكرية ويحركنها تحريكاً آلياً بالخيوط(٢٤٠) . والعبادة الجنسية لا تظهر فقط فى الرسوم الكثيرة التى نراها فى نقوش الهياكل ذات قضبان منتصبة ، بل إنا فضلا عن هذا

نراها كثيراً فى الرموز المصرية على هيئة صليب ذى مقبض كان يتخذ رمزاً للاتصال الجنسى وللحياة القوية(٢٤١) .

ثم صار الآلهة فى آخر الأمر بشراً — أو بعبارة أصح أصبح البشر آلهة . ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلا رجالا متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا فى صور عظيمة باسلة ، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم ؛ يجوعون ويأكلون ، ويظمأون ويشربون ؛ ويحبون ويتزوجون ، ويكرهون ويقتلون ، ويشيخون ويموتون(٢٤٢) ، شأنهم فى هذا شأن آلهة اليونان سواء بسواء . من ذلك أن أوزير إله النيل المبارك كان يحتفل بموته ولقبه فى كل عام ، وكان يرمز بموته وبعثه لانخفاض النيل وارتفاعه ، ولعلهما كانا يرمزان أيضاً لموات الأرض وحياتها وكان فى مقدور كل مصرى فى عهد الأسرة المتأخرة أن يقص كيف غضب سِتْ (أوسيت) إله الجفاف الخبيث الذى أيبس الزرع بأنفاسه المحرقة ، كيف غضب هذا الإله الخبيث من أوزير (النيل) لأنه يزيد (بفيضه) من خصب الأرض ؛ فقتله وحكم بجفافه الجبار فى مملكة أوزير . (ويقصدون بهذا أن النهر لم يرتفع ماؤه فى سنة من السنين) ، وظل الأمر كذلك حتى قام حورس الباسل ابن إيزيس فغلب ست ونفاه من الأرض . وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما فى حب إيزيس من حرارة ، وحكم مصر حكماً صالحاً ، وحرم أكل لحم الآدميين ونشر لواء الحضارة ، ثم صعد إلى السماء ليحكم فيها ويكون إلهاً(٢٤٣) . وكانت هذه أسطورة ذات معنى عميق ، ذلك بأن التاريخ — كدين الشرق — ثنائى ، فهو سجل للنزاع بين الخلق والدمار ، وبين الخصب والجفاف ، وبين الشباب المتجدد والفناء ، بين الخير والشر ، بين الحياة والموت .

ومن أعمق الأساطير أيضاً أسطورة إيزيس الأم العظمى . ولم تكن إيزيس أخت أوزير وزوجته الوفية فحسب ، بل كانت من بعض الوجوه أجل منه قدراً ، لأنها قهرت الموت بالحب شأنها فى ذلك شأن النساء بوجه عام . كذلك

لم يكن فضلها مقصوراً على أرض النهر السوداء التى أخصبها مس أوزير (النيل) فأغنت مصر كلها بإنتاجها — لم يكن فضلها مقصوراً على هذه الأرض ، بل كان لها فضل أعظم من هذا وأنفع ، لقد كانت رمز القوة الخالقة الخفية التى أوجدت الأرض وكل ما عليها من الكائنات الحية ، وأوجدت ذلك الحنو الأمومى الذى يحيط بالحياة الجديدة حتى يتم نموها مهما كلفها من جهد وعناء ، وكانت ترمز فى مصر — كما ترمز كالى ، وإستير ، وسيبيل فى آسية ، وكما ترالزديمتر فى بلاد اليونان ، وسيريز فى رومة — كما ترمز هذه كلها إلى ما للعنصر النسوى من أسبقية وأفضلية واستقلال فى الخَلْق ، وفى الميراث ، وإلى ما كان للمرأة أول الأمر من زعامة فى حرث الأرض ؛ ذلك أن إيزيس (كما تقول الأسطورة) هى التى عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً برياً فى أرض مصر ، وكشفت عنهما لأوزير(٢٤٤) . وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صوراً من الجواهر لأنها فى اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبّحون بحمدها فى العشى والإبكار ، وكانت صورة قدسية لها تمثالها وهى ترضع فى ربيبة طفلها الذى حملت فيه بمعجزة من المعجزات توضع فى معبد ابنها المقدس حورس (إله الشمس) فى منتصف فصل الشتاء من كل عام ، أى فى الوقت الذى يتفق ومولد الشمس السنوى فى أواخر شهر ديسمبر . ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية الفلسفية أعمق الأثر فى الطقوس المسيحية وفى الدين المسيحى ، حتى أن المسيحيين الأولين كانوا أحياناً يصلون أمام تمثال إيزيس الذى يصورها وهى ترضع طفلها حورس ، وكانوا يرون فيهما صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة أسطورة المرأة (أى العنصر النسوى) الخالقة لكل شىء والتى تصبح آخر الأمر أم الإله(٢٤٥) .

وكانت هذه الآلهة — رع (أوأمون كما كان يسميه أهل الجنوب) وأوزير ، وإيزيس وحورس — أعظم أرباب مصر . ولما تقادم العهد امتزج رع

وأمون وإله آخر هو فتاح فأصبحت ثلاث صور أو مظاهر لإله واحد أعلى يجمعها هى الثلاثا[٢٤٦] . وكان للمصريين عدد لا يحصى من صغار الآلهة منها أنوبيس بن آوى ، وشو ، وتفنوت ، ونفثيس ، وكث ، وثت ؛ . . . ولكننا لا نريد أن نجعل من هذه الصحف متحفاً للآلهة الأموات . إن الملك نفسه كان إلهاً فى مصر وكان على الدوام ابن أمون — رع لا يحكم مصر بحقه الإلهى فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهى ، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطنا له إلى حين .

وكان يرسم على رأسه الصقر رمز حورس وشعار القبيلة ، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة وواهبة القوى السحرية للتاج[٢٤٧] ، وكان الملك هو الرئيس الدينى الأعلى يرأس المواكب والحفلات العظيمة التى تمجد أعياد الآلهة . وبفضل هذه الدعاوى ، دعاوى قدسية المولد وقدسية السلطان ، استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة .

ومن أجل هذا كان الكهنة فى مصر دعامة العرش كما كانوا هم الشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعى . وتطلب هذا الدين الكثير التعقيد أن تقوم عليه طبقة بارعة فى فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها فى الوصول إلى الآلهة . وكان منصب الكاهن ينتقل فى الواقع إن لم يكن بحكم القانون ، من الأب إلى الابن ، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن ، بفضل تقوى الشعب وكرم الملوك السياسى ، أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها . وكان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التى تقدم للآلهة ، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيراد أطيان الهياكل ، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية . وإذ كانوا معفين من الضرائب التى تجبى من سائر الناس ومن السخرة والخدمة العسكرية فقد كان لهم

من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه سائر الطبقات . والحق أنهم كانوا جديرين بقسط وافر من السلطان لأنهم هم الذين جمعوا علوم مصر واحتفظوا بها ، وهم الذين علموا الشعب وفرضوا على أنفسهم نظاماً دقيقاً قوامه القوة والغيرة . وقد وصفهم هيرودوت وصفاً يكاد يشعرنا بأنه كان يهابهم ويرهبهم قال :

« وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ، ولا يتحللون قط من المراسم الآتية ؛ . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على الدوام . . ويختتنون حرصاً منهم على النظافة لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال ، ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة فى كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقذار مكاناً فى أجسامهم . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل[٣٤٨] » .

وكان أهم ما يميز هذا الدين توكيده فكرة الخلود . فالمصريون يعتقدون أنه إذا أمكن أن يحيا أوزير النيل ، ويحيا النبات كله ، بعد موتهما ، فإن فى مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته ، وكان بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة مما ساعد على تثبيت هذه العقيدة التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ، والتى انتقلت منهم إلى الدين المسيحى[٣٤٩] . لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة — الكا — كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذى يرفرف بين الأشجار . وهذه الثلاثة مجتمعة — الجسم والقرينة والروح — تبقى بعد ظاهرة الموت ، وكان فى استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ؛ ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين فى « حقل الفيضان السعيد » أى فى الحقائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام . وفى وسع الإنسان

أن يحكم على ما كان عليه من يعللون أنفسهم بهذه الآمال من فقر ونكد . إلا أن هذه الحقول الفردوسية لا يمكن الوصول إليها إلا باستخدام صاحب الميسْبر الذى كان للمصريين كما كان شارون ، ولم يكن هذا الشيخ الطاعن فى السن يقبل فى قاربه إلا الرجال والنساء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم ذنباً ما ، وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله . والذين لا ينجحون فى هذا الاختبار فى النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى قبورهم يجوعون ويظمئون ، ويطعمون من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس .

وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم . ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم . ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التى تحبها الآلهة : من أسماك ، ونسور ، وأفاعى ، وبما هو خير من هذه كلها وهو الجعران — والجعارين ضرب من الخنافس كانت فى رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتوالد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر . وكان خيراً من هذه وتلك أن يشترى كتاب الموتى(*) ، وهو قراطيس ملفوفة أودع فيها

(*) ذلك اسم حديث أطلقه لپسيوس على نحو ألفى ملف من ورق البردى وجدت فى عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغاً لإرشاد الموتى . واسمها المصرى هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله الحكمة . وقد جاء فى الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه فى عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه(٢٥٠) » ولقد عثر هوشع على ما يشبه هذا الكتاب بين اليهود (انظر الفصل الخامس من الباب الثانى عشر من هذا الكتاب) .

الكهنة أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها أن تهدئ من غضب أوزير ، بل أن تخدعه .. فإذا ما وصلت روح الميت إلى أوزير بعد أن تجتاز العدد الكبير من الصعاب والأخطار ، خاطبت القاضى الأكبر بما يشبه هذه الأقوال :

أيا من يعجل سير جناح الزمان ،
يا من يسكن فى كل خفايا الحياة ،
يا من يحصى كل كلمة أنطق بها —
انظر إنك تستحى منى ، وأنا ولدك ؛
وقلبك مفعم بالحزن والخجل ،
لأنى ارتكبت فى العالم من الذنوب ما يفعم القلب حزناً ،
وقد تماديت فى شرورى واعتدائى .
ألا فسالمنى ، ألا فسالمنى ،
وحطم الحواجز القائمة بينك وبينى !
ومُر بأن تمحى كل ذنوبى وتسقط
منسية عن يمينك وشمالك !
أجل ، امح كل شرورى
وامح العار الذى يملأ قلبى
حتى تكون أنت وأنا من هذه اللحظة فى سلام(٢٥١) .

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى فى صورة « اعتراف سلبى » . وهذا الاعتراف من أقدم وأنبل ما عبر به الإنسان عن مبادئه الأخلاقية :

« سلام عليك ، أيها الإله الأعظم ، رَبّ الصدق والعدالة ! لقد وقفت أمامك ، يا رب ؛ وجىء بى لكى أشاهد ما لديك من جمال . . . أحمل إليك

الصدق . . . إنى لم أظلم الناس . . . لم أظلم الفقراء . . . لم أفرض على رجل حرّ عملا أكثر مما فرضه هو على نفسه . . . لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة . . . ولم أكن سبباً فى أن يسىء السيد معاملة عبده ، ولم أمت إنساناً من الجوع ؛ ولم أبك أحداً ولم أقتل إنساناً . . . ولم أخن أحداً . . . ولم أنقص شيئاً من موزونة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة . . . ولم أرتكب عملا شهوانياً داخل أسوار المعبد المقدسة . . . ولم أكفر بالآلهة . . . ولم أغش فى الميزان . . . ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع . . . ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة . . . أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر(٢٥٢) .

على أن الدين المصرى لم يكن فيه ما يقوله عن الأخلاق إلا الشىء القليل ، ذلك أن الكهنة قد صرفوا كل همهم إلى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، فلم يجدوا متسعاً من الوقت لتعليم الناس المبادئ الخلقية . بل إن كتاب قصة الموتى نفسه ليعلم المؤمنين أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها إلى دار السلام ، وأهم ما يؤكده هذا الكتاب هو تلاوة الأدعية لا الحياة الطيبة الصالحة وقد جاء فى أحد هذه الملفات : « إذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار » أى حيي الحياة الخالدة . ووضعت صيغ التمائم والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب ؛ وتضمن للشيطان نفسية دخول الجنة . وكان من واجب المصرى التقى أن يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغاً عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير . استمع مثلا إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد « الشياطين » عن طفلها :

« اخرج يا من تأتى فى الظلام ، وتدخل خلسة . . . هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله . . . هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه منى لقد حصنته منك بعشب — إفيت الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للأحياء ومر فى فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة من سمك الإبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر(٢٥٣) .

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضاً . وأدب مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة — السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها ، أو يحيون الموتى(٢٥٤) . وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتماد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء فى النهر(٢٥٥) . وكانت الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم ، والرجم بالغيب ، وكان لابد لكل باب من إله يخيف الأرواح الخبيثة ، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الأطفال الذين يولدون فى اليوم الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون فى اليوم العشرين من شهر شرياخ سيفقدون أبصارهم فى مستقبل أيامهم(٢٥٦) . ويقول هيرودوت إن كل يوم وكل شهر مخصص لإله من الآلهة ، وإن المصريين كانوا يعينون ما سوف يقع لكل شخص منهم فى حياته حسب اليوم الذى ولد فيه ، فيعرفون كيف يموت ، وماذا سيكون فى مستقبل أيامه(٢٥٧) . ونسى الناس على مر الزمن ما بين الدين والأخلاق من صلات فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل إلى السعادة الأبدية ، بل كانت السبيل إليها هى السحر والطقوس وإكرام الكهنة . وإلى القارىء ما يقوله فى هذا عالم كبير من علماء الآثار المصرية :

« ومن ثم تضاعفت الأخطار التى تكتنف الدار الاخرة ، وكان فى وسع الكاهن أن يمد الموتى فى كل موقف من المواقف الخطره برقية قوية تنقذه منه لا محالة . وكان لديهم ، فضلا عن الرقى الكثيرة التى يستطيع بها الموتى أن يصلوا إلى الدار الآخرة ، رقى أخرى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه ، ورقى غيرها يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وأن يتنفس ، ويأكل ويشرب ويتقى أكل فضلاته ، ومنها ما يمنع الماء الذى يشربه أن يستحيل لهباً ، ومنها ما يحيل الظلام نوراً ، ومنها مايرد عنه الأفاعى وغيرها من الهولات المعادية ؛ وما إلى ذلك . . »

وهكذا فوجئنا بانقطاع أسباب التدرج فى نمو المبادئ الأخلاقية التى نستطيع تبينها فى الشرق القديم أو على الأقل بوقف هذا النمو إلى حين ويرجع هذا إلى الأساليب البغيضة التى بلجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من أهون سبيل »(٢٥٨)

تلك كانت حال الدين فى مصر حين ارتقى العرش إخناتون الشاعر المارق وأجج نار الثورة الدينية التى قضت على الإمبراطورية المصرية .

الفصل الرابع

الملك المـــارق

أخلاق إخناتون — الدين الجديد — ترنيمة الشمس — التوحيد —
العقيدة الجديدة — الفن الجديد — الارتكاس — نفرتيتى
تفكك الإمبراطورية — موت إخناتون

فى عام ١٣٨٠ ق . م مات أمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر ، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى ، وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم إخناتون . ولدينا تمثال نصفى لهذا الملك واضح المعارف ، عثر عليه فى تل العمارنة ، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى أبعد حد لا يكاد يصدقه العقل ، ذا وجه نسائى فى رقته ، شاعرى أحاسيسه . وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين ، وجمجمة طويلة شوهاء ، وجسم نحيل ضعيف . وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً .

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين أمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته . فقد كان فى الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سرارى لأمون فى الظاهر ، وليســـتمتع بهنّ الكهنة فى الحقيقة(٢٥٨) .

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة ، فلم يرضه هذا العهر المقدس ، وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قرباناً لأمون كريهة نتنة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى ، واستخدامهم نبوءات أمون للضغط على الأفكار باسم الدين ، ولنشر الفساد السياسى(٢٥٩) ، مما تعافه نفسه ، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة ، وقال فى هذا : « إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من

كل ما سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهى أشد إثماً مما سمعه الملك أمنحوتب الثالث(٢٦٠) » ، وثارت روحه الفتية على الفساد الذى تدهور إليه دين شعبه ، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التى كانت تملأ الهياكل ، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة . ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء ، فلم يقبل تراضيا ولم يقنع بأنصاف الحلول ، وأعلن فى شجاعة أن هاتياك الآلهة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو — أتون .

ورأى إخناتون — كما رأى أكبر فى الهند من بعده بثلاثين قرناً — أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة .

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام ، أو ابتدعها من عنده ، وهل كان أتون مجرد صورة أخرى لأدنيس . وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً ، فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على أمون اسم إخناتون ومعناه « أتون راض » ، واستعان ببعض الترانيم القديمة ، وبعض قصائد فى التوحيد — نشرت فى أيام سلفه(*) — فألف أغانى حماسية فى مدح أتون ، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية . وهى أجل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !
أى أتون الحى ، مبدأ الحياة ،
فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى
ملأت الأرض كلها بجمالك .

(*) فى أيام أمنحوتب الثالث نقش المهندسان سوتى وحور نشيدا توحيديا للشمس على لوحة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى(٢٦١) . وقد كانت العادة المتبعة فى مصر من زمن طويل أن يخاطب إله الشمس أمون — رع باسم أعظم الآلهة(٢٦٢) ، ولكنه لم يكن فى اعتقادهم إلا إله مصر وحدها .

إنك جميل ، عظيم براق ، عال فوق كل الرءوس ،
أشعتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت ،
إنك أنت رِى ، وأنت تسوقها كلها أسرة ؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك .
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض ؛
ومهما علوت ، فإن آثار قدميك هى النهار ؛
وإذا ما غربت فى أفق السماء الغربى
خيم على الأرض ظلام كالموت ،
ونام الناس فى حجراتهم ،
وعصبت رءوسهم ،
وسدت خياشيمهم ،
ولم ير واحد منهم الآخر ،
وسُرق كل متاعهم ،
الذى تحت رءوسهم ،
ولم يعرفوا هم هذا ،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعى كلها . . .
وسكن العالم بأجمعه
لأن الذى صنعها يستريح فى أفق سمائه .
ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق ،
حين تضىء يا أتون بالنهار
تدفع أمامك الظلام
وإذا ما أرسلت أشعتك

أضحت الأرضان فى أحياء يومية ، . .
واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم
حين رفعتهم .
فإذا غسلوا أجسامهم ، لبسوا ملابسهم ،
ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك ،
وأخذوا فى جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم ،
واستراحت الأنعام كلها فى مراعيها .
وازدهر الشجر والنبات ،
ورفرفت الطيور فى مناقعها ،
ولجنحها مرفوعة تسبّح بحمدك .
ورقصت كل الأغنام وهى واقفة على أرجلها .
وطار كل ذى جناحين ،
كلها تحيا اذا ما أشرقت عليها ؛
وأقلعت السفائن صاعدة ونازلة ،
وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت ؛
وإن السمك فى النهر ليقفز أمامك ،
وإن أشعتك لتى وسط البحر العظيم الأخضر ،
يا خالق الجرثومة فى المرأة ،
ويا صانع النطفة فى الرجل ،
ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ،
ويامن يهدئه فلا يبكى ،
يا من يغذيه وهو فى الرحم ،
يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل من يصنعه

وحين يخرج من الجسم . . . فى يوم مولده
تفتح أنت فاه لينطق ،
وتمده بحاجاته .

والفرخ حين يزقزق فى البيضة
تهبه النفس فمها لتحفظ له حياته
فإذا ما وصلت به
إلى النقطة التى عندها تُكسر البيضة .
خرج من البيضة ،
ليغرد بكل ما فيه من قوة
ويمشى على قدميه
ساعة يخرج منها .
ألا ما أكثر أعمالك
الخافية علينا !
أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه .
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلباك
حين كنت وحيداً :
إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها ،
وكل ما على الأرض من دابة ،
وكل ما يمشى على قدمين
وكل ما هو فى العلا
ويطير بجناحيه ،
والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش
وأرض مصر ؛
إنك تضع كل إنسان فى موضعه

وتمدهم بحاجاتهم ٥٥٥
أنت موجد النيل فى العالم السفلى ،
وأنت تأتى به كما تحب
لتحفظ حياة الناس ...
ألا ما أعظم تدبيرك
يا رب الأبدية !
ن فى السماء نيلاً للغرباء
ولما يمشى على قدميه من أنعام كل البلاد ؛
إن أشعتك تغذى كل الحدائق ،
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة ،
أنت الذى تنميها ،
أنت موجد الفصول
لكى تخلق كل أعمالك :
خلقت الشتاء لتأتى إليها بالبرد ،
وخلقت الحرارة لكى تتذوقاك .
وأنشأت السماء البعيدة ، وأشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعتْ ،
أنت وحدك تسطع فى صورة أتون الحى .
تطلع ، وتسطع ، وتبتعد ، وتعود ؛
إنك تصنع آلاف الأشكال
منك أنت وحدك ؛
من مدائن ، وبلاد ، وقبائل ؛
وطرق كبرى وأنهار ؛

كل الأعين تراك أمامها ،
لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض . . .

* * *

إنك فى قلبى
وما من أحد يعرفك
إلا ابنك إخناتون .
لقد جعلته حكيما
بتدبيرك وقوّتك ؛
إن العالم فى يدك
بالصورة التى خلقته عليها ،
فإذا أشرقت دبت فيه الحياة
وإذا غربت مات ؛
لأنك أنت نفسك طول الحياة
والناس يستمدون الحياة منك ،
ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك
حتى تغيب .
فتقف كل الأعمال
حين تتوارى فى المغرب . . .

* * *

أنت أوجدت العالم ؛
وأقمت كل ما فيه لابنك . . .
إخناتون ، ذى العمر المديد ؛
ولزوجه الملكية الكبرى محبوبته ،

سيدة القطرين
نفر — تفرو — أتون ، ننمرتيتى ،
الباقية المزدهرة أبد الآبدين(٢٦٣) ؟

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب ، بل هى فوق ذلك أول شرح بليغ لفقيدة التوحيد ، فقد قبلت قبل أن يجىء إشعيا بسبعمائة عام(*) كاملة . ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر فى عهد تحتمس الثالث ، كما يقول برستد(٢٦٥) . ويرى إخناتون أن إله رب الأمم كلها ، بل إنه فى مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التى يوليها الإله عنايته . ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل ! ثم انظر إلى ما فى القصيدة من مذهب حيوى : إن أتون لا يوجد فى الوقائع والانتصارات الحربية ، بل يوجد فى الأزهار والأشجار وفى جميع صور الحياة والنماء ، وأتون هو الفرحة التى تجعل الخراف الصغرى « ترقص فوق أرجلها » والطير « ترفرف فى مناقعها » .

وليس الإله إنساناً فى صورة البشر دون غيرها من الصور ، بل إن هذا الإله الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وليس ما فى الكرة المشرقة والآفلة من مجد ملتهب إلا رمزاً للقدرة الغائبة . على أن هذه الشمس نفسها تصبح فى نظر إخناتون « رب الحب » لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة ، وهى فوق ذلك المرضع الحنون التى « تخلق فى المرأة الطفل — الرجل » والتى « تملأ قطرى مصر بالحب » . وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب ؛ ولم يكن كيهوه ، رب الجيوش ، بل كان رب الرحمة والسلام(٢٦٦) .

(*) ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشابه يغفل عنه الناس لا يترك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر فى الشاعر العبرانى(٢٦٤) .

ومن مآسى التاريخ أن إخناتون ، بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدانية العامة التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى ، لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل ، بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع . لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق . فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم أتون ، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة أمون من مئات الآثار ، وحرم كل دين غير دينه ، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة . وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة ، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أخناتون « مدينة أفق أتون » .

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة — وخسرت رواتب الموظفين ، وأضحت أخناتون حاضرة غنية أقيمت فيها المبانى الجديدة — ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة والتقاليد . ولقد كشف سيرو وليم فلندرز بترى فى تل العمارنة — وهى قرية حديثة أنشئت فى موقع أخناتون القديمة — طواراً جميلا تزينه صور الطيور ، والسمك وغيرهما من الحيوانات ، رسمت كلها آدق رسم وأجمله(٢٦٧) . ولم يفرض إخناتون على الفن قيوداً بل كان ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون ، لأن الإله الحق فى اعتقاده لا صورة له ، وما أسمى هذه من عقيدة(٢٦٨) . ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً ، عدا شيئاً واحداً آخر ، وهو أنه غلب إلى فنانيه : بك ، وأوتا ، ونتموز ، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها ، وأن يغفلوا العرف الذى جرى عليه الكهنة . وصدع هؤلاء بأمره ، وصوروه هو نفسه فى صورة شاب دى وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل ، ورأس مستطيل مسرف فى الطول ، واسترشدوا فى تصويرهم بعقيدته الحيوية فى إلهه ، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ؛ ودقة لا تسمو عليها دقة

فى أى مكان أو زمان(٢٦٩) . وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار لأن الفن فى جميع العصور يحس بآلام المسغبة والقتام

ولو أن إخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم ، إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل ، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم فى زمن قصير ، وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية . ولكنه كان شاعراً لا فيلسوفاً ، فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه .

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من تراثها فأغضبها عليه ، وحرم عبادة الآلهة التى جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس . ولما أن محا لفظ أمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هـذا العمل زيغ وضـلال ، إذ لم يكن شىء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم . وما من شك فى أن إخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم وتغالى فى قدرة الشعب على فهم الدين الفطرى . وقام الكهنة من وراء السـتار يأتمرون ويتأهبون ، وظل الناس فى دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة . وزاد الطين بلة أن مثات الحرف التى لم تكن لها حياة إلا على حساب الهياكل أخذت تزمجر فى السر غضباً على الملك الزنديق ، بل إن وزراءه وقواده بين جدران قصوره كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته . ألم يكن هو الرجل الذى ترك الدولة تنهار وتنقطع أوصالها بين يديه ؟ .

وكان الشاعر الفتى فى هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان . وكانت له سبع بنات ، ولكنه لم يكن له ولد ذكر . ومع أن القانون كان يحيز له أن

يطلب له وارثا ذكراً من زوجة ثانية ، فإنه لم يقدم على هذا الحل ، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتى . ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره يحتضن الملكة ؛ كما أجاز لمصوريه أن يرسموه فى عربة يسير بها فى الشوارع يلهو ويطرب مع زوجته وبناته . وكانت الملكة تجلس إلى جانبه فى الاحتفالات وتمسك بيده . كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه . وكان يصف زوجته بأنها « سيدة سعادته » ويقول « إن الملك يبتهج قلبه حين يسمع صوتها » ؛ وكان فى قسمه يقسم بهذه الصيغة : « بقدر ما تسعد وقلبى الملكة أطفالها(٢٧٠) . لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر .

وجاءت الرسائل المروعة من الشام(*) تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة ، فقد غزا الحثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر فى الشرق الأدنى . وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة . وتردد إخناتون فى الأمر ؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر ؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا فى ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها . ولما رأت الولايات أنهـا لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح ، خلعت حكامها المصريين ، وامتنعت فى غير جلبة عن أداء شىء من الخراج ، وأصبحت حرة مستقلة فى جميع شؤونها . ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة ، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة . وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التى ظلت قرناً كاملا تعتمد أكثر ما تعتمد على ما يأتيها من

(*) فى عام ١٨٩٣ حفر سير فلندرز بترى فى تل العمارنة على أكثر من ثلثمائة وخمسين لوحة هى رسائل مكتوبة بالخط المسمارى معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى إخناتون من بلاد الشرق .

الجزية الخارجية ، ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ، ووقف العمل فى مناجم الذهب ، وعمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية . وألفى إخناتون نفسه معدماً فقيراً لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله مِلك له . واندلع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وتترقب سقوطه .

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٦٢ ق . م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون مَلكاً ، وأيقن أن شعبه غير جدير به .

الفصل الخامس

اضمحلال مصر وسقوطها

توت عنخ أمون — جهود رمسيس الثانى — ثروة الكهنة —
فقر الشعب — فتح مصر — خلاصة فى فضل مصر على الحضارة

وبعد عامين من وفاته جلس على العرش توت عنخ أمون زوج ابنته وحبيب الكهنة . وما لبث أن بدل اسمه توت عنخ أتون الذى سماه به حموه . وأعاد عاصمة المُلك إلى طيبة ، وتصالح مع السلطات الكهنوتية ، وأعلن إلى الشعب المبتهج عودته إلى عبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع الآثار القديمة كلمتا أتون وإخناتون ، وحرَّم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق . وكان الناس إذا تحدثوا عنه سمَّوه « المجرم الأكبر » . ونقشت على الآثار الأسماء التى محاها إخناتون ، وأعيدت أيام الأعياد التى ألغاها . وهكذا عاد كل شىء إلى ما كان عليه قبل .

وفيما عدا هذا حكم توت عنخ أمون حكماً لا ميزة له ولا فضل ، ولولا ما كشف فى قبره من كنوز لا عهد للناس بها من قبل لما سمع العالم به . وجاء من بعده قائد باسل يدعى حار محب سير جيوشه على طول الشاطئ وأعاد إلى مصر أملاكها الخارجية وسلمها الداخلية . وجنى سيتى الأول بحكمته ثمار عودة النظام والثروة ، وشيد بهو الأعمدة فى الكرنك[٢٧٢] . وشرع فى نحت هيكل عظيم فى صخور أبى سنبل ، وخلد عظمته فى الأعقاب بالنقوش الفخمة ، وكان له الحظ الأكبر فى أن رقد آلاف السنين فى قبر من أحسن قبور مصر زخرفاً وتنميقاً .

ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى صاحب الشخصية الروائية العجيبة وآخر العظام . وقلما عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً ، فقد كان وسيما

شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه إحساسه فى شبابه بهذه المحاسن ، ولم تكن جهوده الموفقة فى الحرب ليضارعها غير مغامراته فى الحب . وبعد أن نحى رمسيس عن العرش أخاً له ذا مطالب جاءت فى غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ، ويملأ به خزانة مصر ، واستخدم ما جاء به هذه الحملة من أموال لإخضاع الولايات الأسيوية التى خرجت على مصر . وقضى ثلاث سنين فى إخضاع فلسطين ثم واصل زحفه والتقى عند قادش (١٢٨٨ ق م) بجيش عظيم جمعه الأحلاف الأسيويون . وبدل بشجاعته وبراعة قيادته ، هزيمة محدقة به نصراً مؤزراً . ولربما كان من نتائج هذه الحملات أن جيء إلى مصر بعدد كبير من اليهود عبيداً أو مهاجرين ؛ ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثانى هو بعينه فرعون موسى الذى ورد ذكره فى سفر الخروج(٢٧٣) . وأمر أن تخلد انتصاراته بغير قليل من المبالغة والتحيز على خمسين جداراً أو نحوها ، وكلف أحد الشعراء بأن يشيد بذكره فى ملحمة شعرية ، وكافأ نفسه على أعماله ببضع مئات من الزوجات ، وخلف بعد وفاته مائة وخمسين ابناً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث . وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لهن أيضاً أبناء عظاء ، وكان أبناؤه ومن تناسل منهم من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة فى مصر بقيت على هذه الحال أربعة قرون ، وظل حكام مصر يختارون من هذه الطبقة أكثر من مائة عام .

والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موفقاً . ولقد أسرف فى البناء إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقى من العمائر المصرية يعزى إلى أيام حكمه . وأتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وأضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر ؛ وشاد ضريحه الكبير المعروف بالرمسيوم فى غرب النهر ، وأتم الهيكل العظيم المنقور فى الجبل عند أبى سنبل ، ونثر تماثيل له ضخمة فى طول البلاد وعرضها . وراجت التجارة فى عهده عن طريق

برزخ السويس والبحر المتوسط ، واحتفر ترعة أخرى توصل النيل بالبحر الأحمر ، ولكن الرمال السافية طمرتها بعد وفاته بزمن قليل . وأسلم رمسيس الروح فى عام ١٢٢٥ ق . م وهو فى التسعين من عمره ، بعد عهد يعد من أشهر العهود فى التاريخ .

ولم يكن فى البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة . ثم قام النزاع فى مصر ، كما قام فى غيرها من البلاد خلال جميع العهود ، بين الدولة والدين . فقد كانت أسلاب كل حرب والجزء الأكبر من خراج البلاد المفتوحة تتدفق فى أثناء حكمه وحكم خلفائه الذين تولوا الملك بعده مباشرة فى خزائن الهياكل والكهنة . وبلغت هذه الثروة غايتها فى عهد رمسيس الثالث . فكان للمعابد من العبيد ١٠٧ر٠٠٠ وهم جزء من ثلاثين جزءاً من سكان مصر . وكان لها من أرض مصر ٧٥٠ر٠٠٠ فدان أى سبع أرض مصر الصالحة للزراعة ، وكانت تمتلك ٥٠٠ر٠٠٠ رأس من الماشية ، وتستحوذ على إيراد ١٦٩ مدينة من مدن مصر والشام . وكانت هذه الثروة الضخمة كلها معفاة من الضرائب(٢٧٤) . وأغدق رمسيس الثالث الكريم ، وإن شئت فقل الوهاب ، من الهدايا على كهنة أمون ما لم يسبق له فى كثرته مثيل . وكان من هذه الهدايا ٣٢ر٠٠٠ كيلوجرام من الذهب ، ومليون كيلو جرام من الفضة(٢٧٥) . وكان يهبهم كل سنة ١٨٥ر٠٠٠ كيس من الحبوب . ولما حان الوقت لأداء أجور العمال الذين تستخدمهم الدولة فى مرافقها وجد الخزانة مقفرة(٢٧٦) . وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكى يتحكم الآلهة .

وكان شأن هذه السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة عاجلا كان ذلك أو آجلا . فلما أن جلس على العرش آخر الملوك الذين تسموا باسم رمسيس اغتصب المُلكَ الكاهن الأكبر للإله أمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى . وأمست الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة ازدهر فيها البناء

والتخريف ، واضمحل فيها كل ما عدا فلذين من مقومات الحياة القومية . ووضعت الرقى لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتص الآلهة كل ما فى مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها فى الوقت الذى كان فيه الغزاة الأجانب يعدّون العدة للانقضاض على كل هذه الثروة المتجمعة .

وثار نقع الفتنة فى جميع أطراف البلاد . وكان من أهم موارد مصر موقعها الهام على الطريق الرئيسى لتجارة البحر المتوسط ، كانت معادنها وثروتها قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا فى الغرب وعلى بلاد فينيقية وسوريا وفلسطين فى الشمال والشرق . لكن أمماً جديدة فى بلاد أشور وبابل وفارس كانت آنئذ تتمرد وتشتد ويقوى سلطانها فى الطرف الآخر من طرفى هذا الطريق التجارى ، وكانت تدعم قوّتها بالمخترعات والمغامرات وتجرؤ على منافسة المصريين الأتقياء الراضين عن أنفسهم فى ميادين التجارة والصناعة . وكان الفينيقيون وقتئذ يتمون صنع السفائن ذات الثلاثة الصفوف من المجاذيف لكى يصلوا بها إلى ما يبغون من كمال ، وأخذوا بفضل هذه السفائن ينتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً فشيئاً . وكان الدوريون والآخيون قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه (حوالى ١٤٠٠ ق . م.) وكانوا ينشئون لهم إمبراطورية تجارية . وأخذت التجارة يقل سيرها شيئاً فشيئاً فى قوافل بطيئة فى طرق الشرق الأدنى الجبلية والصحراوية المعرضة لهجمات اللصوص ، وبدأت تنقل بوسيلة أقل من هذه كلفة على ظهر سفن تخترق البحر الأسود وبحر إيجه إلى طروادة وكريت وبلاد اليونان ، وأخيراً إلى قرطاجنة وإيطاليا وأسبانيا . وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية وازدهرت ، أما الأمم المقيمة على شواطئه الجنوبيـــة فضعفت واضمحلت . وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها ، ثم فقدت آخر الأمر كبرياءها نفسه ، وزخفت على أرضها الأمم المنافسة لها واحدة بعـــد واحدة وعدت عليها واجتاحت أرضها وخربتها .

فانقض عليها اللوبيون من الغرب فى عام ٩٤٥ ق . م وعاثوا فيها فساداً يخربون ويدمرون ، وفى عام ٧٢٢ ق . م غزاها الأحباش من الجنوب وثاروا لعبوديتهم القديمة ؛ وفى عام ٦٧٤ اجتاحها الأشوريون من الشمال وأخضعوا لسلطانهم مصر التى كان يستبد بها الكهنة ، وألزموها بأداء الجزية لهم واستطاع أبسماتيك أمير شاو أن يرد الغزاة وقتاً ما ويضم أجزاء مصر كلها تحت زعامته . وحدثت فى أثناء حكمه وحكم خلفائه نهضة فى الفن ، وشرع مهندسو مصر ومثالوها وشعراؤها يجمعون ما كان لمدارسهم من تقاليد فى الفن والذوق ، ويعدونها ليلقوها فيما بعد تحت أقدام اليونان . لكن الفرس بقيادة قمبيز عبروا برزخ السويس فى عام ٥٢٥ ق . وقضوا مرة أخرى على استقلال مصر ، وفى عام ٣٣٢ ق . م اجتاحها الإسكندر من آسية وأخضعها لحكم مقدنية(*) . وأقبل قيصر فى عام ٤٨ ق م ليستولى على الإسكندرية عاصمة مصر الجديدة ، وليستولد كليوباترة ابناً ووارثاً كانا يأملان أملا لم يتحقق أن يتوجاه ملكاً تخضع لسلطانه أكبر الإمبراطوريات القديمة . وفى عام ٣٠ ق . م أمست ولاية تابعة لرومة واختفت من التاريخ القديم .

ونهضت البلاد مرة أخرى نهضة قصيرة الأجل حين عمر القديسون الصحراء وجرسيرل هيپاشيا لتلقى حتفها فى الشوارع (٤١٥ ب. م) ، وحين فتحها المسلمون (حوالى ٦٥٠ ب . م) وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس وملأوها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . ولكن هذه الثقافة وتلك كانتا فى واقع الأمر ثقافتين أجنبيتين غير مصريتين ولم تلبثا أن زالتا .

. . . . . .

(*) وتاريخ الحضارة المصرية القديمة فى عهد البطالمة والقياصرة من الموضوعات التى سترد فى مجلد تال .

واليوم يوجد مكان يسمى مصر ، ولكن المصريين ليسوا سادته(*) ؛ فلقد حطمتهم الفتوح من زمن بعيد ، واندمجوا عن طريق اللغة والزواج فى الفاتحين العرب ، وأضحت مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز ، وأقدام السياح المتعبين ، الذين يأتون من أقاصى الأرض ليروا أهرامها فلا يجدوها إلا أكواماً من الحجارة . ولربما رجعت إلى مصر عظمتها إذا ما أثرت آسية مرة أخرى فأصبحت مصر مركز التجارة العالمية ومستودعها . ولكن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيكون وهو واثق مما يتنبأ به ، وكل ما نعلمه علم اليقين أن آثار مصر القديمة قد خرجت وتهدمت ؛ فالسائح أينما سار يجد خربات ضخمة ، وآثاراً وقبوراً تذكره بجهود عظيمة جبارة ، ومن حوله قفر ودمار ، ونضوب للدم القديم . ويحيط بهذا كله رمال سافية لا تنفك الرياح الحارة تحملها من كل جانب ، كأنها قد اعتزمت أن تغطى بها آخر الأمر كل شىء(**).

لكن هذه الرمال لم تخرب من مصر القديمة إلا الجسد ، أما روحها فلا تزال باقية فيما ورثه الجنس البشرى من علم ومن ذكريات مجيدة .

وحسبنا أن نذكر من معالم حضارتها نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية ، وأنها فى أغلب الظن هى التى اخترعت الزجاج ، ونسيج

(*) كتب هذا قبل الثورة المباركة بنحو ثلاثين عاما وقد أصبح المصريون بفضل هذه الثورة وتأييدهم لها سادة فى بلادهم .

(**) آثرنا أن ننقل هذا الجزء كما كتبه المؤلف حرصاً منا على الأمانة فى النقل وإن كنا لا نوافقه على الكثير منه ، ورغبة فى أن يعرف المصريون كل ما يقال عنهم حقاً كان ذلك أو باطلا . وقل أن يوجد فى بلاد العالم شعب إلا وقد امتزج دمه بدم غيره من الشعوب . فسلمو مصر وأقباطها وإن اختلفوا فى الدين إيؤلفون معاً أمة متجانسة ذات عادات وتقاليد وأمانى واحدة . ومن الخطأ أن يقال إن مدنهم لا تعرف إلا المسلمين والإنجليز . إنها تضم أبناء مصر من مسلمين وأقباط ، أما الإنجليز فإن الذى تعرفه عنهم أنهم احتلوا البلاد سبعين عاما ولكنهم ظلوا فيها قوماً أجانب غرباء عن أهلها حتى أخرجتهم من أرضها . وها هى ذى مصر قد عاد حكمها إلى أيدى أبنائها وأخذت تسير بخطى جبارة لاستعادة مجدها . (المترجم)

الكتان ، وأنها هى التى أحسنت صنع الملابس والحلى والأثاث والمساكن ، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة ، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن فى البلاد ، وأنهم أول من أنشأ نظام البريد والتعداد والتعليم الابتدائى والثانوى ، بل إنهم هم أول من أوجد نظام التعليم الفنى لإعداد الموظفين ورجال الإدارة .

وهم الذين ارتقوا بالكتابة ، ونهضوا بالآداب والعلوم والطب ، والمصريون على ما نعرف أول من وضع دستوراً واضحاً للضمير الفردى ، والضمير العام ، وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية ، وبالاقتصار على زوجة واحدة ، وأول من دعا إلى التوحيد فى الدين ، وأول من كتب فى الفلسفة ، وأول من نهض بفن العمارة والنحت ، وارتقى بالفنون الصغرى إلى درجة من الإتقان والقوة لم يصل إليها (فيما نعرف) أحد من قبلهم ، وقلما باراهم فيها من جاء بعدهم . وهذا الفضل كله لم يذهب هباء حتى فى الوقت الذى كان خير ما فيه مطموراً تحت رمال الصحراء أو ملقى على الأرض بفعل الاضطرابات الأرضية(*) ، فقد انتقلت الحضارة المصرية على أيدى الفينيقيين والسوريين واليهود وأهل كريت واليونان والرومان ، حتى أضحت من التراث الثقافى للجنس البشرى . وإن ما قامت به مصر من الأعمال فى فجر التاريخ لا تزال آثاره أو ذكرياته مخلدة عند كل أمة وفى كل جيل ، « ولعل مصر » كما يقول فور « بفضل تماسكها ووحدتها ، وتنوع منتجاتها الفنية تنوعاً أساسه دقة التنسيق والتنظيم ، وبفضل ما بذلت من جهود جبارة دامت أطول العهود ، لعل مصر بهذا كله تعرض على العالم أعظم ما ظهر على الأرض من حضارات إلى يومنا هذا(٢٧٧) » . وأن من الخير لنا أن نعمل نحن لكى نبلغ ما بلغت .

(*) لقد دمر طيبة عن آخرها زلزال حدث فى عام ٢٧ ب . م .